٤٨

الروائع

الادب ، ومنتخبات من اشهر اعلامه

السلسلة الاولى

ظهرت كلها

في الشعر

٢ — الشعر الجاهلي : نشأته — فنونه — صفاته . — الشنفرى

٣ — المهلهل : منتخبات شعرية

٧ — امرؤ القيس : منتخبات شعرية

١٠ — ابو العتاهية : منتخبات شعرية

في النثر

١ — علي بن ابي طالب : نهج البلاغة

٤ — ابن بطوطة : تحفة النظّار في غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار (الجزء الاول)

٥ — » : » » » (الجزء الثاني)

٦ — » » : » » » » » » (الجزء الثالث)

٨ — ابن عبد ربه : العقد الفريد (الجزء الاول)

٩ — » » : » » (الجزء الثاني)

ثمن هذه السلسلة : ١٠ غروش ذهبية

ابن خلدون

العمران البشري على الجملة

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٢٨

ابن خلدون

١٣٣٢ - ١٤٠٦

الرجل

ولد ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون في تونس سنة ١٣٣٢ ، من أسرة عربية الأصل ، تمتّ بنسبها الى اقيال كندة ثم الى شرفاء اشبيلية . وكان قد اشتغل افرادها بالسياسة ، فنشأ في ابن خلدون ميل الى تلك المغامرات . فما اتم العشرين من سنيه ، وكان قد مات ابواه بالطاعون ، حتى دخل في خدمة امير تونس . ولكنه لم يلبث ان انتقل الى مراكش فخدم سلطانها مدّة . وما زال يتنقل عند سلاطين المغرب واسبانيا ، تارة مرفوعاً ، وطوراً مخذولًا ، حتى سئم السياسة وتلاعباتها فاعتزلها مدة سبعة اعوام (١٣٧٥ – ١٣٨٢) صرف منها اربعة في قلعة ابن سلامة ، فكتب فيها مقدّمته الشهيرة وبدأ تاريخه

وفي سنة ١٣٨٢ رحل الى المشرق فاقام مدّة في القاهرة يعلّم ويتولّى القضاء . ثم ارسل يطلب عائلته ، فغرقت في الطريق . حينئذٍ ذهب الى مكة فحجّ ، ورجع الى مصر فلزم معيشة الانفراد الى سنة ١٣٩٤ . فرجع فيها الى القضاء مرّات . وكان ان ظهر تيمورلنك في اراضي الشام ، فذهب ملك مصر لمحاربته واستصحب ابن خلدون معه ، فاستفاد هذا من تلك

الفرصة واتصل بالطاغية المشهور، فامتدحه ورجع بعد ان نال الامان . وكان منصبه في القضاء المالكي، في مصر، ينتظره؛ فعاد اليه بعد المتاعب حتى مات سنة ١٤٠٦

اما اخلاقه وصفاته فجملها انه كان كثير الثقة بنفسه، مغامرًا في طلب المعالي، صاحب دهاء وتدبير عجيبين يقرنهما الى كثير من الانانية وحب الظهور وكان ايضاً متأثرًا جدّ التأثر بتربيته الدينية، حتى رافقه هذا التأثر في الكثير من احكامه

وقد توسّعنا كثيرًا في درس حياة الرجل واخلاقه في مقدّمة الجزء السابق، فلتُراجع

آثاره

قلنا في مقدّمة الجزء السابق، ان لابن خلدون آثارًا شعرية متوسطة القيمة، وآثارًا نثرية لم يصلنا منها الّا التاريخ . ثم القينا نظرة اجمالية على التاريخ وتقسيمه، وقيمة ابن خلدون مؤرخاً . وها نحن الآن ندرس، بتفصيل اوفى، الكتاب الذي يهمنا، ألا وهو « المقدّمة » :

ـ

المقدّمة

نسخها ١

تحتفظ الآداب العربية العصرية بعدة نسخ خطيّة من مقدّمة ابن خلدون، موجودة في مكاتب باريس، ومونيخ، وفاس. على ان كل هذه النسخ لا تتفق تماماً. فهناك، فضلاً عن الاختلافات النسخية التي لا يخلو منها كتاب، اضافات وتنقيحات تختصّ بها الواحدة دون الاخرى. ونحن، اذا ما عرفنا ان ابن خلدون اصلح مقدّمته مرّات بعد ان انهاها في قلعة ابن سلامة سنة ١٣٧٨ م (١) واذا ما عرفنا انه قدّم منها نسخة اولى للسلطان ابي العباس احمد الحفصي، صاحب تونس؛ ونسخة ثانية للسلطان ابي فارس عبد العزيز المريني، صاحب مراكش؛ ونسخة ثالثة الملك ابي الفرج برقوق المصري؛ واذا ما عرفنا انه كان يُجبَر على حذف او زيادة او اصلاحّ بعض امور، توافق الملك المذكور ولا توافق غيره، من كتابة التقدمة والمديح وغير ذلك؛ ادركنا شيئاً من سرّ هذا الاختلاف

اقسامها

وعلى كلّ فعلماء الادب يتفقون اليوم على ان المقدّمة تقسم الى مقدّمة مع خطبة الكتاب، وستة فصول كل فصل منها يشتمل على عدة فصول ايضاً. ودونكم التقسيم بالتفصيل كما يذكره ابن خلدون نفسه :

---

١) راجع الجزء السابق ص: ي

خطبة الكتاب

المقدمة : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه، والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط، وذكر شيء من اسبابها — (وهو ما نشرناه في الجزء السابق)

الكتاب الاول : في طبيعة العمران في الخليقة ، وما يعرض فيها من البدو والحضر، والتغلّب ، والكسب ، والمعاش ، والصنائع ، والعلوم ونحوها ؛ وما لذلك من الاسباب والعلل . (وهذا الكتاب هو كل المقدّمة كما ذكرنا في تقسيم التاريخ)

الفصل الاول : في العمران البشري على الجملة . وفيه مقدّمات :

المقدّمة الاولى : ضرورة الاجتماع الانساني

المقدّمة الثانية : في قسط العمران من الارض ، والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار ، والانهار ، والاقاليم

تكملة لهذه المقدّمة : في ان الربع الشمالي من الارض اكثر عمراناً من الربع الجنوبي ؛ وذكر السبب في ذلك

تفصيل الكلام على الجغرافيا

المقدّمة الثالثة : في المعتــدل من الاقاليم والمنحرف . وتأثير الهواء في الوان البشر ، والكثير من احوالهم

الفصل الثاني : في العمران البدوي ، والامم الوحشية ، والقبائل. وما يعرض في ذلك من الاحوال. وفيه فصول وتمهيدات :

الفصل الثالث : في الدول العامة ، والملك ، والخلافة ، والمراتب السلطانية ، وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ، ومتممات :

الفصل الخامس : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الاحوال . وفيه مسائل :

الفصل السادس : في العلوم واصنافها ، والتعليم وطرقه وسائر وجوهه ، وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدّمة ولواحق :



الفيلسوف الاجتماعي

غايته

يتضح من الفهرس الطويل الذي قدّمناه على هـذا الكلام ، ومما ننشره في هذا الجزء من« المقدّمة » ، ان ابن خلدون يبتدع علماً جديداً مستقلًا في ذاته ، له ثمرة مفيدة ، وان لم تكن وافرة الاهمية ، وهي تحقيق الاخبار التاريخية ، وفصل الثابت منها عن الخرافات والاساطير .

وهـذا العلم يستقلّ تماماً عن التاريخ لان التاريخ ، في عرف ابن خلدون ، لا يتجاوز « الخبر عن الاجتماع الانساني » (1) . وهو لم يجتهد في تغيير حدّ التاريخ المتعارف لعهده ، ولا اشتغل في تحسين طريقتـه ، او في جعله علماً ، كما اعتقد بعض من درس مؤلفنا من المستشرقين . واوضح دليل على ذلك انه في تاريخه ينسى او يتناسى القواعد العامّـة التي وضعها في مقدّمته ، فيظهر بمظهر من تقدّمه من جُمّاع الاساطير ، ونَقَلَة الاحاديث . وهو امرٌ غريب يصعب شرحه ، ان لم نرَ في ابن خلدون عقليّتين مختلفتين : عقلية المؤرّخ القديم ، الجامع للحوادث والاساطير ، المشتغل بترتيب « الخبر عن الاجتماع الانساني » ؛ وعقلية الفيلسوف الاجتماعي الذي يدرس مظاهر الهيئة الاجتماعية ، ويستفيد من مرويّات القوم عنها ، لا ليصحّح هـذه الروايات ويجعلَ منها تاريخاً علمياً صحيحاً ، بل ليعرضها على محـكّ النقد ويميّز بين الزائف فيها والصحيح ، فيستخلص ان البشر مندفعون بطبيعـة

(1) اطلب المنتخبات ص : 2

الوهم والتقليد ، ميالون الي رواية الغريب من الحوادث . فهو يشتغل اذن ، لا بالتاريخ ، بل بالعلم الجديد الذي ابتدعه ولم يسمّه ، والذي يمكننا نعته «بالفلسفة الاجتماعية» . فتنعكس اذن الآية ويصبح التاريخ ، لا غاية تتحقق من مبادئ هذا العلم ، بل واسطة يستمدّ منها العلم الجديد موادّ ملاحظاته

ويمكننا الآن ان نحدّد هذا العلم الاجتماعي الجديد كما عرفه ابن خلدون ، بقول المؤلف نفسه :

«وكأنّ هذا علم مستقلّ بنفسه . فانه ذو موضوع : وهو العمران البشري ، والاجتماع الانساني . وذو مسائل : وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدةً بعد أخرى .» (١

طريقته وقيمته

موضوع هذا العلم الجديد المجتمع ، ومسرحه الارض العامرة بما فيها من ظواهر طبيعية ، ومؤسسات دينية ومدنية ، وملل مختلفة ، وعقائد متباينة . وعليه كان اسهل الطرق على ابن خلدون ، واضمنها لتحقيق غايته ان يلقي نظرة على هذا العالم العامر فيدرس اقسامه ، ويحلّل مظاهره ، ويستنتج من كل ذلك مبادئ علمه الواسع ، وما يمكن تطبيقه على سير الشعوب في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل

فكان موضوع درسه الاول البيئة الجغرافية فقسم الارض ، كما فعل سلفاؤه ، الى سبعة اقاليم ، واستخلص من اختلاف درجات الحرارة في كل

---

١) اطلب المنتخبات ص : ٨

الفيلسوف الاجتماعي

غايته

يتضح من الفهرس الطويل الذي قدَّمناه على هذا الكلام ، ومما ننشره في هذا الجزء من « المقدّمة » ، ان ابن خلدون يبتدع علماً جديداً مستقلاً في ذاته ، له ثمرة مفيدة ، وان لم تكن وافرة الاهمية ، وهي تحقيق الاخبار التاريخية ، وفصل الثابت منها عن الخرافات والاساطير

وهذا العلم يستقلّ تماماً عن التاريخ لان التاريخ ، في عرف ابن خلدون ، لا يتجاوز « الخبر عن الاجتماع الانساني » (١ . وهو لم يجتهد في تغيير حدّ التاريخ المتعارف لعهده ، ولا اشتغل في تحسين طريقته ، او في جعله علماً ، كما اعتقد بعض من درس مؤلفنا من المستشرقين . واوضح دليل على ذلك انه في تاريخه ينسى او يتناسى القواعد العامّة التي وضعها في مقدّمته ، فيظهر بمظهر من تقدّمه من جُمَّاع الاساطير ، ونَقَلَة الاحاديث . وهو امرٌ غريب يصعب شرحه ، ان لم نرَ في ابن خلدون عقليّتين مختلفتين : عقلية المؤرّخ القديم ، الجامع للحوادث والاساطير ، المشتغل بترتيب « الخبر عن الاجتماع الانساني » ؛ وعقلية الفيلسوف الاجتماعي الذي يدرس مظاهر الهيئة الاجتماعية ، ويستفيد من مرويّات القوم عنها ، لا ليصحّح هذه الروايات ويجعل منها تاريخاً علمياً صحيحاً ، بل ليعرضها على محكّ النقد ويميز بين الزائف فيها والصحيح ، فيستخلص ان البشر مندفعون بطبيعة

---

(١) اطلب المنتخبات ص : ٢

الوهم والتقليد ، ميالون الى رواية الغريب من الحوادث . فهو يشتغل اذن، لا بالتاريخ ، بل بالعلم الجديد الذي ابتدعه ولم يسمّه ، والذي يمكننا نعته «بالفلسفة الاجتماعية» . فتنعكس اذن الآية ويصبح التاريخ ، لا غاية تتحقق من مبادئ هذا العلم ، بل واسطة يستمدّ منها العلم الجديد موادّ ملاحظاته

ويمكننا الآن ان نحدّد هذا العلم الاجتماعي الجديد كما عرفه ابن خلدون ، يقول المؤلف نفسه :

«وكأنّ هذا علم مستقلّ بنفسه . فانه ذو موضوع : وهو العمران البشري ، والاجتماع الانساني . وذو مسائل : وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاته واحدةً بعد أخرى .» (١

طريقته وقيمته

موضوع هذا العلم الجديد المجتمع ، ومسرحه الارض العامرة بما فيها من ظواهر طبيعية ، ومؤسسات دينية ومدنية ، وملل مختلفة ، وعقائد متباينة . وعليه كان اسهل الطرق على ابن خلدون ، واضمنها لتحقيق غايته ان يلقي نظرة على هذا العالم العامر فيدرس اقسامه ، ويحلّل مظاهره ، ويستنتج من كل ذلك مبادئ علمه الواسع ، وما يمكن تطبيقه على سير الشعوب في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل

فكان موضوع درسه الاول البيئة الجغرافية فقسم الارض، كما فعل سلفاؤه، الى سبعة اقاليم، واستخلص من اختلاف درجات الحرارة في كل

---

١) اطلب المنتخبات ص : ٨

منها ، اختلاف اخلاق ساكنيها ، وعاداتهم ، وافكارهم ، والوانهم ايضاً .
فاتانا بتلك الملاحظات النفيسة عن تأثير الهواء في الوان البشر واخلاقهم[1]

واذ انتهى من درس المحيط الطبيعي ، مال الى الظواهر الاجتماعية ، واشهرها واقدمها الدين ، فبحث في الالهامات والرؤيا ، وجاوز الدروس في السحر والعرافة ومعرفة الغيب . حتى افضى به البحث الى الحياة الاجتماعية البحتة

وهناك ترك لنا تلك المبادئ الدقيقة في درس تطوّر المجتمع الانساني : من التوحّش الفوضوي ، الى تأسيس دولة فاتحة مكتسحة ، الى الانغماس في الترف الحضري فالاضمحلال . وهذا ، على ما نرى ، اهم ما جاء به فكر ابن خلدون الفيلسوف الاجتماعي . فهو يرى الانسانية كنهر جار لا يتوقف ولا ينضب . يخرج من ينبوعه في البادية — وسواء كنت تلك البادية مؤلفة من الصحاري الرملية كما في بلاد العرب ، او من السهول كما في بلاد التتار — ويسير جارفاً امامه البلاد ، مكتسحاً الشعوب التي تقدّمته ، فيؤسس مملكة قوية بفضل العصبيّة ، الجنسية او الدينية ، ويشترع لها الشرائع والقوانين والانظمة . ويبقى سائداً قويا حتى يغترّ بآثار اسلافه من الحضارة والترف والملذّات ، فينغمس فيها . ويتدفق وراءه نهرٌ آخر من الانسانية ، فيسيل من البادية الى الحضر ، ويكون الاول قد ضعف بانغماسه في الترف ، فيجرفه الى مهاوي الاضمحلال ، ويسود مكانه حتى مرور النهر الثالث . وهكذا تظل الحركة الاجتماعية في دوران مستمرّ . وان لنا في التاريخ من تعاقب القبائل المتوحّشة على الممالك والدول الحضرية اصدق شاهد على

---

1) اطلب المنتخبات ص : ١٨ و ٢٥ وما يليها

هذه الحركة التي تسمّى بحق «قانون الاطوار الثلاثة.» (١

وفي الكلام عن ثبات الممالك الجديدة يتوسّع ابن خلدون في نظريته عن دور العصبية في تعزيز الملك، وضرورة المبادئ الدينية او السياسية لتأسيس الدولة، وهي لا تقلّ طرافة عمّا تقدّم. وهذه النظرية، مع ما جاورها من لزوم تعزيز الملك، رفعت ابن خلدون، في نظر بعض نقّاده الغربيين، الى مقام مكياڤيل؛ كما ان آراءه وملاحظاته الدقيقة في تأثير البيئة الجغرافية في اخلاق القوم، واقواله عن تأثير التجارة في طبائع اهلها، جعلته قريناً لمونتسكيو في كثير من احكامه. وكذلك قانونه الهمّ في دور التقليد عند البشر، وميل المغلوب الى التخلّق باخلاق الغالب، وميل الغالب الى الانغماس في ترف المغلوب، قصر ما بينه وبين تارد من البعد التاريخي، فاقام من فيلسوفنا سابقاً حكيماً «لفيلسوف التقليد»

على ان ابن خلدون لم يحصر قوانينه في التقليد كما فعل الاجتماعي العصري بل تجاوزها الى التباين، والتشابه ايضاً، فدرس الموضوع من جميع جهاته ونال بذلك فخراً حمل المستشرق كارا دي ڤو على ان يرفعه الى مقام «فضل مفكّري اوروبا العصرية» (٢

* * *

ونكتفي اليوم بدرس هذه المظاهر من عقلية ابن خلدون، فنؤلّف مقدّمة لما نشرناه وننشره، من كتابه، في الثلاثة الاجزاء من الروائع؛ تاركين درس آرائه في الخلافة، والإمامة، ووسائل الكسب، والعلوم، لفرصة أخرى نغتنمها لنشر اقواله في هذه المواضيع. وذلك كي نجعل لكل بحث من ابحاثه مقدّمة خاصة به

---

١) سننشر فصول ابن خلدون في هذا الموضوع في العدد القادم من الروائع

٢) B[on] Carra de Vaux : les Penseurs de l'Islam t. I, p. 278

كتاب العبر

وديوان المبتدا والخبر

في ايام

العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم

من دوي السلطان الاكبر

الفصل الاول

العمران البشري على الجملة

العمران البشري على الجملة

المقدمة

ماهية علم ابن خلدون — بعض القواعد اللازمة للتاريخ

قبل ان يبدأ ابن خلدون كلامه في « العمران البشري على الجملة » يقدّم مقدّمة يذكر فيها بعض اسباب الغلط في التاريخ . ثم يذكر ماهية العلم الذي استحدثه ، مع بعض القواعد اللازمة للتاريخ ؛ ويختم بذكر تقسيم الفصل الاول من المقدّمة :

حقيقة التاريخ – اسباب الكذب

إعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبرٌ عن الاجتماع الانساني، الذي هو عُمران العالم؛ وما يعرض لطبيعة ذلك العُمران من الاحوال: مثلُ التوحُّش والتأنُّس، والعصبيات، واصناف التغلُّبات للبشر بعضهم على بعض؛ وما ينشأ عن ذلك من المُلك والدُول، ومراتبها؛ وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب، والمعاش، والعلوم، والصنائع؛ وسائر ما يُحدث في ذلك العمران بطبيعة من الاحوال. ولما كان الكذب مُتطرّقاً للخبر بطبيعته، وله اسباب تقتضيه :

فمنها التشيّعات للآراء والمذاهب. فإنَّ النفس اذا كانت على حال من الاعتدال في قبول الخبر، اعطته حقّه من التمحيص والنظر حتى تتبيّن صدقَه من كذبه . واذا خامرها تشيُّع لرأي او نِحلة، قبلت ما يوافقها من

الاخبار ، لاول وهلة ، وكان ذلك الميـل والتشيّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص ، فتقع في قبول الكذب ونقله

ومن الاسباب المقتضية للكذب في الاخبار ايضاً الثقـةُ بالناقلين . وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (١

ومنها الذهول عن المقاصد ؛ فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع ؛ وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه . فيقع في الكذب

ومنها توهّم الصدق ؛ وهو كثير ، وانما يجيء ، في الاكثر ، من جهة الثقة بالناقلين

ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع ، لاجل ما يداخلهـا من التلبيس والتصنُّع . فينقلها المُخبر كما رآهـا ، وهي بالتصنُّع على غير الحق في نفسه

ومنها تقرّب الناس ، في الاكثر ، لاصحاب التجلّة والمراتب ، بالثنـاء والمدح ، وتحسين الاحوال ، واشاعة الذكر بذلك . فتستفيض الاخبـار بها

---

١) التعـديل والتجريح : اخذ ابن خلدون هاتين اللفظتين من علم الفقـه والحديث . فان القاضي ، اذا ما شكّ ، في صحة امانة شاهد ، كان عليه ، قبل ان يقبل شهادته ، ان يفحص عن سيرته ، من قيامه بواجباته نحو خالقه ونحو البشر . فاذا كان حسن السيرة صالح المعاملات ، قبل شهادته . وسمّي ذاك الامر « بالتعديل » . واما اذا كان الشاهد سيّء السيرة ، فاسد المعاملات ، فـان القاضي يرفض الشهادة . ويسمّى هذا الامر « بالتجريح » . وقد دخلت الطريقة المذكورة ايضاً في علم الحديث فـان جامعي هذه الاقوال النبويّة كانوا لا يقبلونها قبل ان يعرضوا سيرة المحدث وسمعته على محك النقد ، فاذا كان معروفاً بالاستقامـة والصدق قبلوا حديثه ، والا رفضوه . وهم يسمون ذلك بالاسم نفسه : « التعديل والتجريح » وهو ما يعبّر عنه مشترعو اللاتين بلفظتي «Justification» للتعديل ، و «Improbatio» للتجريح

على غير حقيقة . فالنفوس مولعة بحب الثنـاء ، والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة ؛ وليسوا ، في الاكثر ، براغبين في الفضائل ، ولا متنافسين في اهلها

ومن الاسباب المقتضية له ايضاً ، وهي سابقة على جميع مـا تقدم ، الجهل بطبائع الاحوال في العمران . فـان كل حادث من الحوادث ، ذاتاً كان او فعـلاً ، لا بدّ له من طبيعة تخصّه في ذاته ، وفيما يعرض له من احواله . فـاذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومُقتضياتها ، اعانه ذلك ، في تمحيص الخبر ، على تمييز الصدق من الكذب وهذا ابلغ في التمحيص من كل وجه يَعرض . وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة ، وينقلونها ، وتُؤثر عنهم

خرافة الاسكندر في بناء الاسكندرية

كما نقله المسعودي (١ عن الاسكندر ، لما صدّته دوابّ البحر عن بناء الاسكندرية . وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه الى قعر البحر ، حتى صوّر تلك الدواب الشيطانية التي رآهـا ، وعمل تماثيلها من اجساد معدنية ، ونصبها حذاء البنيان . ففرّت تلك الدوابّ حين خرجت وعاينتها . وتمّ بناؤها ، في حكاية طويلة من احاديث خرافـة مستحيلة : من قِبَل اتخاذه التابوت الزجاجي ، ومصادمة البحر وامواجه بجرمه . ومن قِبَـل أن الملوك لا تحمل انفسها على مثل هذا الغرور . ومن اعتمده منهم ، فقد عرّض نفسه للهلكة ، وانتقاض العُقدة ، واجتماع الناس الى غيره ، وفي ذلك اتلافه ، ولا ينتظرون رجوعه من غروره ، طرفة عين . ومن قِبَـل أن الجنّ لا

---

١) المسعودي : راجع الجزء السابق ص : ٤ الحاشية : ٤

يُعرف لها صور ولا تماثيل تختصّ بها ؛ انما هي قادرة على التشكّل . وما يُذكر من كثرة الرؤوس لها فانما المراد به البَشاعة والتهويل ، لا أنه حقيقة

وهذه كلها قادحة في تلك الحكاية ، والقادح المحيل لها من طريق الوجود أبينُ من هـذا كلّه : وهو ان المُنغمس في الماء ، ولو كان في الصندوق ، يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي ؛ وتسخن روحه (١ بسرعة لقلّته . فيفقد صاحبه الهواء المعدّل لمزاج الرئـة والروح القلبي ، ويهلك مكانه . وهذا هو السبب في هلاك اهل الحمّامات ، اذا أُطبقت عليهم عن الهواء البارد ؛ والمتدلّين في الآبار ، والمطامير (٢ العميقة المهوى ، اذا سخن هواؤها بالعفونة ، ولم تداخلها الرياح فتُخلخلها . فـان المتدلّي فيها يهلك لحينه . وبهذا السبب يكون موت الحوت ، اذا فارق البَحر ؛ فان الهواء لا يكفيه في تعديل رئته ، اذ هو حارٌّ بإفراط ، والمـاء الذي يعدّله بارد . والهواء الذي خرج اليه حارّ ؛ فيستولي الحرّ على روحه الحيواني ، ويهلـك دفعة . ومنه هلاكُ المصعوقين ، وامثال ذلك

حكاية الزرازير

ومن الاخبار المستحيلة ما نقله المسعودي ايضاً في تمثال الزّرزور الذي برومة ، تجتمع اليـه الزرازير ، في يوم معلوم من السنة ، حاملةً للزيتون ؛ ومنه يتّخذون زيتهم . وأنظرْ ما ابعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتّخاذ الزيت !

---

١) روحه : اي نَفَسُه

٢) المطامير : جمع المطمورة وهي الحفيرة تحت الارض

مدينة « ذات الابواب »

ومنها ما نقله البكري (١ في بناء المدينة المسمّاة «ذات الابواب» ؛ تحيط باكثر من ثلاثين مرحلة ، وتشتمل على عشرة آلاف باب . والمدن انما اتخذت للتحصن والاعتصام ، كما يأتي . وهذه خرجت عن ان يحاط بها ، فلا يكون فيها حصن ولا معتصم

مدينة النحاس

وكما نقله المسعودي ايضاً في حديث « مدينة النحاس » ؛ وأنها مدينة كل بنائها نحاس ، بصحراء سجلماسة ، ظفر بها موسى بن نصَير في غزوته الى المغرب ؛ وأنها مُغلَقة الابواب . وأن الصاعد اليها من أسوارها ، اذا اشرف على الحائط ، صفّق ورمى بنفسه ؛ فلا يرجع آخر الدهر ؛ في حديث مستحيل عادةً من خرافات القُصّاص (٢ : وصحراء سجلماسة قد نفضها الركّاب والادِلّاء ، ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر

ثم إنّ هذه الاحوال ، التي ذكروا عنها ، كلها مستحيل عادةً ، منافٍ للامور الطبيعية في بناء المدن ، واختطاطها . وان المعادن غاية الموجود منها أن يُصرف في الآنية والخُرْثي (٣ . واما تشييد مدينة منها ، فكما تراه من الاستحالة والبعد

عود الى ذكر القواعد العامّة : الإمكان

وامثال ذلك كثيرة وتمحيصه انما هو بمعرفة طبائع العمران ؛ وهو

---

١) البكري : راجع الجزء السابق — ص : ٣٣ حاشية : ٢

٢) وفعلاً فاننا نرى اسطورة «مدينة النحاس» في كتاب «الف ليلة وليلة»

٣) الخُرْثي : اثاث البيت

احسن الوجوه واوثقها في تمحيص الاخبار ، وتمييز صدقها من كذبها . وهو سابق للتمحيص بتعديل الرواة . ولا يُرجع الى تعديل الرُّواة حتى يُعلم أن ذلك الخبر ، في نفسه ، مُمكن او ممتنع . واما اذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح . ولقد عدّ اهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللفظ وتأويله بما لا يقبله العقل

وانما كان التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الاخبار الشرعية ، لان معظمها تكاليف انشائية أوجب الشارعُ العمل بها ؛ حتى حصل الظن بصدقها ، وسبيل صحة الظن الثقةُ بالرُواة بالعدالة والضبط

واما الاخبار عن الواقعات فلا بدَّ ، في صدقها وصحّتها ، من اعتبار المطابقة . فلذلك وجب ان يُنظر في امكان وقوعه ؛ وصار فيها ذلك اهمّ من التعديل ، ومقدّماً عليه . إذ فائدة الانشاء مُقتبَسة منه فقط ، وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمُطابقة

قانون التمييز

واذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحقّ من الباطل ، في الاخبار ، بالامكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العُمران ، ونميّز ما يلحقه من الاحوال لذاته ، وبمقتضى طبعه ؛ وما يكون عارضاً لا يعتد به وما لا يمكن ان يعرض له . واذا فعلنا ذلك ، كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحقّ من الباطل في الاخبار ، والصدق من الكذب بوجه بُرهاني لا مدخل للشك فيه . وحينئذٍ فاذا سمعنا عن شيء من الاحوال الواقعة في العُمران ، علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه . وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرّى به المؤرّخون طريق الصدق والصواب في ما ينقلونه

علم ابن خلدون المُستَحدث : ماهيته

وهذا هو غرض هذا الكتاب الاول من تأليفنا . وكأنّ هـذا علمٌ مستقلّ بنفسه . فانه ذو موضوع ، وهو العُمران البشري والاجتماع الانساني ؛ وذو مسائل ، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والاحوال لذاتـه واحدة بعد أُخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم ، وضعياً كان او عقلياً

واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدَث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وادّى اليه الغوص . وليس من علم الخطابة انما هو الاقوال المُقنعة ، النافعة في استمالة الجمهور الى رأي او صدّهم عنه . ولا هو ايضاً من علم السياسة المدنيّة ، اذ السياسة المدنيّة هي تدبير المنزل او المدينة بما يجب بمقتضى الاخلاق والحكمة ، ليُحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع ، وبقاؤه . فقد خالف موضوعَ هذين الفنَّين اللذين ربما يشبهانه . وكأنه علم مستنبط النشأة

حال هذا العلم قبل ابن خلدون

ولعمري لم اقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقـة . ما أدري أَلِغَفلتهم عن ذلك ، وليس الظنُّ بهم . او لعلّهم كتبوا في هـذا الغرض ، واستوفوه ، ولم يصل الينـا . فالعلوم كثيرة ، والحكماء في أُمم النوع الانساني متعدّدون ؛ وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل . فاين علوم الفرس ، التي امر عمر (رضه) بمحوها عن الفتح ؟ واين علوم الكلدانيين ، والسريانيين ، وأهل بابل ، وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها ؟ واين علوم القبط ، ومن قبلهم ؟ وانما وصل الينا علوم امّة واحدة ، وهم يونان ، خاصّة لكلف المأمون بإخراجها من لغتهم ، واقتداره على ذلك بكثرة المُترجمين ،

وبذلِ الاموال فيها . ولم نقف على شيء من علوم غيرهم

واذا كانت كل حقيقة متعقّلة طبيعية ، ويصلح ان يُبحث عمّا يعرض لها من العوارض لذاتها ، وجبَ ان يكون ، باعتبار كل مفهوم وحقيقة ، عِلمٌ من العلوم يخصّه . لكنَّ الحكماء لعلّهم انما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات ، وهذا (١ انما ثمرته في الاخبار فقط ، كما رأيت ؛ وان كانت مسائله في ذاتها وفي اختصاصها شريفة ، لكن ثمرته تصحيح الاخبار ، وهي ضعيفة . فلهذا هجروه ، والله اعلم ! « وما أُوتيتُم من العلم الّا قليلًا ! » (٢

العلوم التي تشارك هذا العلم في بعض مسائله

وهذا الفنّ الذي لاح لنا النظرُ فيه نجد منه مسائل تجري بالعَرَض ، لأَهل العلوم ، في براهين علومهم . وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء ، في إثبات النبوَّة ، من أنَّ البشر متعاونون في وجودهم ، فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازِع . ومثل ما يُذكر في اصول الفقه ، في باب اثبات اللغات ، ان الناس محتاجون الى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع ، وتبيان العبارات اخفّ . ومثل ما يذكره الفقهاء ، في تعليل الاحكام الشرعية بالمقاصد ، في ان الزّنا مُخلطٌ للانساب ، مُفسدٌ للنوع ؛ وان القتل ايضاً مفسد للنوع ؛ وان الظُّلم مؤذنٌ بخراب العمران المفضي لفساد النوع . وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الاحكام . فانها كلّها مبنيّة على المُحافظة على العمران . فكان لها النظر فيما يعرض له . وهو ظاهرٌ من كلامنا هذا في هذه المسائل الممثّلة

---

١) وهذا : اي علم ابن خلدون ٢) القرآن (سورة ١٧ [الاسرى] : ٨٧)

كلام بعض المتقدّمين فيما يجاور هذا العلم

وكذلك ايضاً يقع الينا القليل من مسائله في كلمات متفرّقة لحكماء الخليقة ؛ لكنهم لم يستوفوه :

فمن كلام الموبذان (١) لبهرام بن بهرام ، في حكاية البوم ، التي نقلها المسعودي : « ايها الملك ، إن الملك لا يتم عزّه الا بالشريعة ، والقيام لله بطاعته ، والتصرّف تحت امره ونهيه ؛ ولا قوامَ للشريعة الا بالملك ؛ ولا عزّ للملك الّا بالرجال ؛ ولا قوام للرجال الّا بالمال ؛ ولا سبيل للمال الّا بالعمارة ؛ ولا سبيل للعمارة الّا بالعدل ؛ والعدلُ الميزانُ المنصوب بين الخليقة ، نصبه الربُّ وجعل له قيّماً وهو الملك . »

ومن كلام انوشروان في هذا المعنى بعينه : « الملك بالجند ، والجند بالمال ، والمال بالخراج ، والخراج بالعمارة ، والعِمارة بالعدل ، والعدل بإصلاح العُمّال ، وإصلاح العُمّال باستقامة الوُزراء . ورأس الكلّ بافتقاد المَلك حالَ رعيّته ، بنفسه ؛ واقتداره على تأديبها ، حتى يملكها ولا تملكه . »

وفي الكتاب المنسوب لأرسطو « في السياسة » المتداول بين الناس ، جزءٌ صالح منه ، إلا أنه غير مستوفٍ ، ولا معطىً حقّه من البراهين ، ومختلطٌ بغيره . وقد أشار في ذلك الكتاب الى هذه الكلمات التي نقلناها عن الموبذان ، وانوشروان ؛ وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظمَ

---

(١) الموبذان : جمع مُوبذ ، وهي كلمة فارسية تعني كاهن المجوس . وكان كاهنهم الأعظم يسمى : « موبذان موبذ » اي « كاهن الكهنة » . فاكتفى كتبة العرب بالكلمة الأخيرة « موبذان » وظنوها مفردةً فاشتقوا لها جمعاً فقالوا : « موابذة »

القولَ فيها . وهي قوله : «العالم بُستانٌ سياجه الدولة . الدولة سلطان تحيا به السُنّة . السُنّة سياسة يسوسها المُلك . المُلك نِظام يعضُده الجُند . الجُند اعوان يكفلهم المال . المال رزق تجمعه الرعيّة . الرعية عبيد يكنِفهم العدل . العدل مألوف وبه قِوام العالم . العالم بُستان . . . » ثمّ ترجع الى اول الكلام . فهذه ثمان كلمات حكمية ارتبط بعضها ببعض ، وارتدّت أعجازها على صدورها ، واتصلت في دائرة لا يتعيّن طَرَفها ، فخر بعثوره عليها ، وعظّم من فوائدها (١

وانت اذا تأملت كتابنا في فصل «الدول والملك» واعطيته حقّه من التصفُّح والتفهُّم ، عثرت في اثنائه على تفسير هذه الكلمات ، وتفصيل إجمالها مستوفىً بيّناً باوعب بيان ، واوضح دليل وبُرهان ، أطلعنا الله عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة موبذان

وكذلك تجد في كلام ابن المقفّع (٢ ، وما يُستطرد في رسائله من ذكر السياسات ، الكثير من مسائل كتابنا هذا ، غير مبرهنة كما برهناه انما يُجليها في الذكر على منحى الخطابة في اساليب الترسّل ، وبلاغة الكلام

وكذلك حوّم القاضي ابو بكر الطرطوشي (٣ في كتاب «سراج

---

١) تضمين يرد الى ارسطو . على ان ليس في كتاب ارسطو المعروف بالسياسة والذي يذكره ابن خلدون ما يشبه هذه الاقوال . وما يشبه ان يكون مؤرخنا وقف على ذلك في بعض الرسالات المنحولة للفيلسوف الكبير . —

٢) ابن المقفّع : (عبدالله) فارسي الاصل من المجوس . كتب في بعض دوائر العباسيين . قُتل بامر المنصور على ما يقال سنة ٧٥٧م . من اشهر آثاره : ترجمة كتاب «كليلة ودمنة» وله غير ذلك من الترجمات في تاريخ الفرس . مع كتاب «الدرة اليتيمة» في الحكم . —

٣) الطرطوشي : (القاضي ابو بكر محمد) وُلد في

الملوك » وبوّبه على ابواب تقرُب من أبواب كتابنا هذا ومسائله. لكنه لم يُصادفْ فيه الرمية ، ولا اصاب الشاكلة، ولا استوفى المسائل، ولا اوضح الادلّة . انما يبوّب البـاب للمسألة ، ثم يستكثر من الاحاديث والآثار ؛ وينقل كلمات متفرّقة لحكماء الفرس مثل بُزُرْجِمهر ، والمُوبِذان ، وحكماء الهند ، والمأثور عن دانيـال ، وهِرْمِس ، وغيرهم من اكابر الخليقة ؛ ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً . انما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ . وكأنه حوّم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ، ولا استوفى مسائله

ونحن ألهمنا الله الى ذلك الهاماً واعثرنا على علمٍ علّمنا سنّ بكره ، وجعلنا جُهَيْنة خبره (١ . فان كنت قد استوفيت مسائله ، وميّزتُ ، عن سائر الصنائع ، انظاره وانحاءه ، فتوفيق من الله وهداية ! وان فاتني شيء في إحصائه ، واشتبهت بغيره ، فللناظر المحقق إصلاحه ، ولي الفضـل لاني نهجتُ له السبيل ، واوضحت له الطريق ، «والله يَهدي بنوره من يشاء»(٢

ثم يذكر صفات العُمران ويورد كيف قسم كتابه هـذا ، اي المقدّمة ، الى ستة فصول في كل منها مقدّمات ومسائل ، على نحو ما ذكرنا في المقدّمة

طرطوش (اسبانيا) وتوفي في الاسكندرية (١٠٥٩ – ١١٢٦) ساح في الشرق وحجّ ، وترك كتاب « سراج الملوك » وهو مجموعة نصائح وحوادث مفيدة للملوك قسمها الى ٦٣ باباً . — ١) علّمنا سنّ بكره : البكر : الجمل الفتي والعبارة مثـل في اتقان معرفة الامر . — جعلنا جهينة خبره : يشير ابن خلدون الى المثل المشهور : « وعند جهينة الخبر اليقـين » . وكلا التعبيرين بمعنى واحد . —

٢) القرآن : (سورة ٢٤ [النور] : ٣٥)

العمران البشري على الجملة

المقدمة الاولى

ضرورة الاجتماع الانساني

المقدّمة الاولى في أن الاجتماع الانساني ضروري ؛ ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم : « الإنسان مدنيٌّ بالطبع . » اي لا بدّ له من الاجتماع ، الذي هو بالمدينة في اصطلاحهم . وهو معنى العمران . وبيانه أن الله سبحانه خلق الانسان ، وركّبه على صورةٍ لا تصحُّ حياتها وبقاؤها الّا بالغذاء ؛ وهداه الى التماسه بفطرته ، وبما رُكّب فيه من القُدرة على تحصيله . الّا أن قدرة الواحد من البشر قاصرةٌ عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، غير موفية له بمادّة حياته منه . ولو فرَضْنا منه اقلّ ما يمكن فرضه ، وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً ، فلا يحصل الا بعلاجٍ كثير من الطحن ، والعجن ، والطبخ . وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين ، وآلات لا تتم الّا بصناعات متعدّدة من حدّاد ، ونجّار ، وفاخوري . وهَبْ انه يأكله حباً من غير علاج ، فهو ايضاً يحتاج ، في تحصيله ايضاً حبًّا ، الى اعمال أُخرى اكثر من هذه من الزراعة ، والحصاد ، والدراس الذي يُخرج الحبّ من غلاف السُنبل . ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعدّدة ، وصنائع كثيرة اكثر من الاولى بكثير . ويستحيل ان تفي بذلك كلّه ، او ببعضه قدرة الواحد . فلا بدّ من اجتماع القُدَر الكثيرة من ابناء جنسه ، ليحصل القوت

له ولهم . فيحصل ، بالتعاون ، قــدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف . وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضاً ، في الدفاع عن نفسه ، الى الاستعانة بابناء جنسه . لان الله سبحانه ، لما ركّب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القُدَرَ بينها ، جعل حظوظَ كثيرٍ من الحيوانات العُجمِ ، من القُدرة ، اكمل من حظّ الانسان : فقُدرة الفرس مثــلاً اعظم بكثير من قدرة الانسان ، وكذا قُدرة الحمار ، والثور . وقُدرة الاسد والفيــل أضعافٌ من قدرته

ولما كان العُدوان طبيعياً في الحيوان ، جعل لكل واحدٍ منها عُضوًا يختصّ بمدافعته ما يصل اليــه من عادية غيره . وجعل للانسان ، عوضاً من ذلك كلّه ، الفكرَ واليدَ . فاليدُ مهيَّئة للصنائع بخــدمة الفكر . والصنائع تحصّل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدّة في سائر الحيوانات للدفاع : مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة ، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة ، والترّاس النائبة عن البَشَرات الجاسية (١) الى غير ذلك ، ممــا ذكره جالينوس (٢) في كتاب « منافع الاعضاء » . فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العُجم سيّما (٣) المفترسة . فهو عاجز عن مدافعتها وَحدَه بالجملة . ولا تفي قدرته ايضاً باستعمال الآلات المعدّة

١) الجاسية : جست وجسأت يده من العمل : صَلُبَت . البَشَرات الجاسية : الجلود الصَلبة القاسية . — ٢) جالينوس : (١٣١ — ٢٠١ م .) من اشهر اطباء اليونان . اقام في رومية ؛ واتصلت كتبه بالعرب ، في العصر العباسي ، فترجموا اكثرها حتى اصبح عندهم اشهر الاطباء . اما كتابه « في منافع الاعضاء » المذكور فعرّبه حنين بن اسحق وابن اخته حبيش ، في عهد خِلافة المأمون

٣) سيّما : راجع ما قلناه عن هذه اللفظة ، واستعمالها عند ابن خلدون في الجزء السابق [الروائع : ج : ١٣ ص : ٤ حاشية : ٣]

لها . فلا بدّ في ذلك كلّه ، من التعاون عليه بابناء جنسه . وما لم يكن هذا التعاون ، فلا يحصل له قوت ولا غذاء ، ولا تتمّ حياته ، لما ركّبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته . ولا يحصل له ايضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح . فيكون فريسة للحيوانات ، ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ، ويبطل نوع البشر . واذا كان التعاون حصّل له القوت للغذاء ، والسلاح المدافعة ، وتمّت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه ؛ فاذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الانساني . والّا لم يكمُل وجودهم ، وما اراده الله عن اعتمار العالم بهم ، واستخلافه اياهم . وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم

وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في فنه الذي هو موضوع له . وهذا ، وان لم يكن واجباً على صاحب الفنّ ، لما تقرّر في الصناعة المنطقية : أنه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم (١) فليس ايضاً من الممنوعات عندهم . فيكون اثباته من التبرّعات ، والله الموفّق بفضله !

ضرورة المُلك

ثم إن هذا الاجتماع ، اذا حصل للبشر كما قرّرناه ، وتمّ عُمران العالم بهم ، فلا بدّ من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لما في طباعهم الحيوانية

---

١) يعتبر منطقيّو العرب ان موضوع العلم هو ما يعرض لذاته اعراض يمكن للانسان جمعها ودرسها في كتاب خاصّ . وعليه كان موضوع الهندسة الكميّة ، وموضوع الطب جسم الانسان ، وموضوع علم الفلك الاجرام السماوية . والحال ان المهندس ، والطبيب ، والفلكي ، لا يحتاجون الى اثبات مواضيعهم اي الكمية ، وجسم الانسان ، والاجرام السماوية . والى هذا الحكم يستند ابن خلدون في قوله ، وهو صواب

من العُدوان والظلم . وليست السلاح ، التي جُعلت دافعةً لعدوان الحيوانات العُجم عنهم ، بكافيـة في دفع العُدوان بينهم ؛ لأنها موجودة لجميعهم فلا بدَّ من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض . ولا يكون من غيرهم ، لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم ، والهاماتهم . فيكون ذلك الوازع واحداً منهم ، يكون له عليهم الغَلَبَة والسلطان ، واليـدُ القاهرة ؛ حتى لا يصلَ احدٌ الى غيره بعُدوان . وهذا هو معنى الملك ! وقد تبيَّن لك بهذا أنّهُ خاصّة للانسان طبيعية ؛ ولا بدَّ لهم منها وقـد توجد في بعض الحيوانات العُجم ، على مـا ذكره الحكماء ، كما في النحل والجراد ، لِما استُقرئَ فيها من الحكم ، والانقياد ، والاتبـاع لرئيس من اشخاصها ، متميز عنها في خَلْقه وجثمانه . الّا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهِداية ، لا بمقتضى الفكرة والسياسة : « أعطى كلَّ شيء خلقَه ثم هدى ! » (١

مصدر السلطة — وجوب النبوّات

وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان ، حيث يحاولون اثبات النبوّة بالدليل العقلي وأنها طبيعيّة للانسان ، فيقرّرون هذا البرهان الى غاية ، وأنه لا بدَّ للبشر من الُحكم الوازع . ثم يقولون ، بعد ذلك ، وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله ، يأتي به واحد من البشر . وانـه لا بدَّ ان يكون متميزاً عنهم ، بما يودع الله فيه من خواصِّ هدايته ، ليقع التسليمُ له والقبول منه . حتى يتمّ الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ، ولا تزييف . وهذه القضية للحكماء غير بُرهانية كما تراه . اذ الوجود وحياة البشر قد تم

---

١) القرآن : (سورة ٢٠ [طه] : ٥٢)

من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه ، او بالعصبية التي يقتدر بها على قهرهم ، وحملهم على جادّته . فأهل الكتاب والمتّبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى المجوس الذين ليس لهم كتاب. فانهم اكثر اهل العالم . ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والآثار، فضلاً عن الحياة. وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة في الشمال والجنوب؛ بخلاف حياة البشر فوضى دون وازع البتّة ، فانه يمتنع . وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب النبوّات، وأنه ليس بعقلي . وانما مدركه الشرع كما هو مذهب السلف من الأمّة ، والله ولي التوفيق والهداية !

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار ، والانهار ، والاقاليم

في هذا الباب ، وفيما يلحق من التكملات ، يتكلّم المؤلف عن كرويّة الارض واقسامها من اليابسة ، والبحار ، وما فيها من المدن . ثم يلاحظ أن الربع الشمالي من الارض اكثر عمراناً من الربع الجنوبي ، ويشرح ذلك باعتدال المناخ . واخيراً يفصّل الكلام عن الجغرافيا فينحو نحو الاقدمين بقسمة الارض الى سبعة اقاليم . مما لا قيمة مهمّة له في هذا العصر ، فتركناه

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الاقاليم والمنحرف ، وتأثير الهواء في الوان البشر ، والكثير من احوالهم

قد بيّنا ان المعمور ، من هذا المنكشف من الارض ، انما هو وسطه الى الجانب الشمالي ، لافراط الحرّ في الجنوب منه ، والبرد في الشمال . ولما كان الجانبان من الجنوب والشمال متضادّين في البرد والحرّ ، وجب ان تتدرّج الكيفيّة من كليهما الى لوسط ، فيكون معتدلًا : فالاقليم الرابع اعدل العمران ؛ والذي حفافَيه من الثالث والخامس اقرب الى الاعتدال ؛ والذي يليهما ، السادس والثاني ، بعيدان عن الاعتدال ؛ والاول والسابع ابعد بكثير . فلهذا كانت العلوم ، والصنائع ، والمباني ، والملابس ، والاقوات ، والفواكه بل والحيوانات ، وجميع ما يتكوّن في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ؛ وسكانها من البشر اعدل اجساماً ، والواناً ، واخلاقاً ، وادياناً . حتى النبوّات فانما توجد ، في الاكثر ، فيها ؛ ولم نقف على خبر بعثة في الاقاليم الجنوبية ، ولا الشمالية . وذلك أن الانبياء والرسل انما يختصّ بهم اكمل النوع في خَلقهم وأخلاقهم . قال تعالى : « كنتم خيرَ أُمّة أُخرجت للناس » (١ وذلك ليتمّ القبول بما يأتيهم به الانبياء من عند الله

واهل هذه الاقاليم اكمل لوجود الاعتدال لهم . فتجدهم على غاية من

---

١) القرآن : (سورة ٣ [آل عمران] : ١٠٦)

التوسّط في مساكنهم، وملابسهم، واقواتهم، وصنائعهم. يتّخذون البيوت المنجّدة (١ بالحجارة، المنمّقة بالصناعة، ويتنافسون (٢ في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك الى الغاية. وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب، والفضّة، والحديد، والنحاس، والرصاص، والقصدير ويتصرّفون، في معاملاتهم، بالنقدَين العزيزين. ويبعدون عن الانحراف في عامّة احوالهم. وهؤلاء: أهل المغرب، والشام، والحجاز، واليمن والعراق، والهند، والسند، والصين. وكذلك الاندلس، ومن قرُب منها من الفرنجة، والجلالقة (٣، والروم، واليونان، ومن كان مع هؤلاء او قريباً منهم في هذه الاقاليم المعتدلة. ولهذا كان العراق والشام اعدل هذه كلّها لانها وسط من جميع الجهات. واما الاقاليم البعيدة عن الاعتدال، مثل الاول والثاني والسادس والسابع، فأهلها ابعد من الاعتدال في جميع احوالهم: فبناؤهم بالطين والقصب، واقواتهم من الذُّرة والعشب، وملابسهم من اوراق الشجر يخصفونها عليهم او الجلود، واكثرهم عرايا من اللباس. وفواكه بلادهم وأدُمها (٤ غريبة التكوين، مائلة الى الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس او حديد او جلود يقدّرونها للمعاملات. واخلاقهم، مع ذلك، قريبة من خُلق الحيوانات العُجم، حتى لَيُنقل عن الكثير من السودان، اهل الاقليم الاول، انهم

---

١) المنجّدة: اسم مفعول من نجد البيت: زيّنه

٢) يتنافسون: يتنافسون، ويتبارون

٣) الجلالقة: هم سكان غاليسيا، وهي مقاطعة في الشمال الغربي من اسبانيا كانت تؤلف امارة مستقلّة. يبلغ عدد سكانها نحو المليونين

٤) الأُدُم: ج. إدام: وهو كل ما يؤكل مع الخبز فيطيّبه

يسكنون الكهوف والغياض ، ويأكلون العشب ، وانهم متوحّشون غير مستأنسين ، يأكل بعضهم بعضاً ؛ وكذا الصقالبة . والسبب في ذلك أنهم ، لبعدهم عن الاعتدال ، يقرب عرض امزجتهم واخلاقهم من عرض الحيوانات العُجم ، ويبعدون عن الانسانية بمقدار ذلك . وكذلك احوالهم في الديانة ايضاً ؛ فلا يعرفون نبوّة ، ولا يدينون بشريعة ، إلّا مَن قَرُب منهم من جوانب الاعتدال . وهو في الاقل النادر : مثل الحبشة المجاورين لليمن ، الدائنين بالنصرانية ، فيما قبل الاسلام وما بعده لهذا العهد . ومثل اهل مالي ، وكوكو ، والتكرور ، المجاورين لارض المغرب ، الدائنين بالاسلام لهذا العهد ؛ يُقال انهم دانوا به في المائة السابعة . ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة ، والافرنجة ، والترك من الشمال . ومن سوى هؤلاء من اهل الاقاليم المنحرفة ، جنوباً وشمالاً ، فالدين مجهول عندهم ، والعلم مفقود بينهم ؛ وجميع احوالهم بعيدة من احوال الاناسي ، قريبة من احوال البهائم «ويخلق ما لا تعلمون» (١

جزيرة العرب

ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن ، وحضرموت ، والاحقاف ، وبلاد الحجاز ، واليمامة ، وما يليها من جزيرة العرب في الاقليم الاول والثاني . فان جزيرة العرب كلّها احاطت بها البحار من الجهات الثلاث ، كما ذكرنا فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها . فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحرّ ؛ وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر .

---

١) القرآن : (سورة ١٦ [النحل] : ٨)

اصل السودان

وقد توهّم بعض النسّابين ، ممّن لا علم لديه بطبائع الكائنات ، أنّ السودان هم وُلد حام بن نوح ، اختصّوا بلون السواد لدعوةٍ كانت عليه من ابيه ظهر أثرها في لونه ، وفيما جعل الله من الرقّ في عقبه . وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القُصّاص . ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة ، وليس فيه ذكر السّواد . وانما دعا عليه بأن يكون وُلده عبيداً لوُلد إخوته لا غير (١

وفي القول بنسبة السّواد الى حام غفلةٌ عن طبيعة الحَرّ والبرد ، وأثرهما في الهواء ، وفيما يتكوّن فيه من الحيوانات . وذلك ان هذا اللون شمل أهل الاقليم الاول والثاني ، من مزاج هوائهم للحرارةِ المتضاعفة بالجنوب . فان الشمس تُسامِت (٢ رؤوسهم مرّتين في كل سنة ، قريبة احداهما من الاخرى ، فتطول المسامَتة عامّة الفصول . فيكثر الضوء لاجلهـا ويُلحّ القيظ الشديد عليهم ، وتسودّ جلودهم لافراط الحرّ

ونظـير هذين الاقليمين ، مما يقابلهما من الشمال ، الاقليم السابع والسادس . شمل سكانها ايضاً البيـاض ، من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال . اذ الشمس لا تزال بأفقهم ، في دائرة مرأى العين ، او مـا قرب منها ، ولا ترتفع الى المسامَتة ، ولا مـا قرب منها . فيضعف الحرّ فيها ، ويشتدّ البرد ، عامّة الفصول ، فتبيضّ ألوان أهلها ، وتنتهي الى الزّعورة (٣

---

١) راجع ذلك في التوراة : سفر التكوين (الفصل التاسع : ٢١ — ٢٨)

٢) تُسامت : تكون في «سمت الرأس» وهو ، في علم الهيئة ، نقطة من الفلك ينتهي اليها الخطّ الخارج من مركز الكرة الارضية ، على استقامة قامة الشخص

٣) الزعورة : من زعر الشعر : تفرّق فبان بياض ما تحته

ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون، وبرش الجلود، وصهوبة (١ الشعور

وتوسّطت بينهما الأقاليم الثلاثة: الخامس، والرابع، والثالث فكان لها في الاعتدال، الذي هو مزاج المتوسّط، حظّ وافر. والرابع ابلغها في الاعتدال غايةً، لنهايته في التوسّط، كما قدّمناه. فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم، ما اقتضاه مزاج أهويتهم. وتبعه من جانبيه الثالث والخامس، وان لم يبلغا غاية التوسُّط، لميل هذا قليلاً الى الجنوب الحارّ، وهذا قليلاً الى الشمال البارد. الّا انهما لم ينتهيا الى الانحراف

وكانت الاقاليم الاربعة منحرفة، واهلها كذلك في خَلقهم وخُلقهم: فالاول والثاني للحرّ والسواد، والسابع والسادس للبرد والبياض. ويسمّى سكان الجنوب من الاقليمَين الاول والثاني، باسم الحبشة، والزنج، والسودان: اسماء مترادفة على الامم المتغيّرة بالسواد، وان كان اسم الحبشة مختصاً منهم بمن تجاه مكة واليمن، والزنج بمن تجاه بحر الهند. وليست هذه الاسماء لهم من اجل انتسابهم الى آدمي اسود، لا حام ولا غيره. وقد نجد من السودان، اهل الجنوب، من يسكن الرابع المعتدل، والسابع المنحرف الى البياض، فتبيضّ الوان اعقابهم على التدريج مع الايّام. وبالعكس فيمن يسكن من اهل الشمال او الرابع، بالجنوب، فتسودّ الوان اعقابهم. وفي ذلك دليل على ان اللون تابع مزاج الهواء. قال ابن سينا (٢ في ارجوزته في الطبّ:

---

١) الصهوبة: من صهب الشعر: كان فيه حمرة او شقرة فهو اصهب

٢) ابن سينا: (ابو علي الحسين، المعروف بالشيخ الرئيس (٩٨٠ — ١٠٣٧)

بالزنجِ حرٌّ غيّرَ الاجسادا حتى كسا جلودَها سوادا
والصِقلِبُ اكتسبت البياضا حتى غدت جلودُها بِضاضا

واما اهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم . لان البياضَ كان لوناً لاهل تلك اللغة الواضعة لاسمائهم ؛ فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية ، لموافقته واعتياده . ووجدنا سكّانه من الترك ، والصقالبة ، والطُغُرغر (١ ، والخزر ، واللان (٢ ، والكثير من الافرنجة ، ويأجوج ومأجوج (٣ اسماء متفرّقة ، واجيالاً متعددة ، مسمّين باسماء متنوعة

واما اهل الاقاليم الثلاثة المتوسطة ، من اهل الاعتدال في خُلقهم وسيرهم وكافة الاحوال الطبيعية للاعتماد لديهم من المعاش ، والمساكن ، والصنائع ، والعلوم ، والرئاسات ، والملك ، فكانت فيهم النبوّات ، والملك ، والدول ، والشرائع ، والعلوم ، والبلدان ، والأمصار ، والمباني ،

فارسي الاصل ، درس الفلسفة والطب ، فبرع فيهما حتى اصبح من اشهر فلاسفة العرب في كل عصر ومصر ، ومن مشاهير فلاسفة العالم . ترك تآليف عديدة اشهرها : «القانون في الطب» «والشفاء» في المنطق ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والفلك : «والاشارات والتنبيهات» في المنطق ؛ «وعيون الحكمة» في المنطق ؛ والطبيعيات ، والفقه ، «ورسالة الطير» في التصوّف – راجع المشرق (٤ [١٩٠١] ٨٨٣)

١) الطُغُرغُر : او التغُزغُز : اسم لجيل من الناس كان ينزل بين خراسان والصين . –

٢) اللان : جيل من البربر اكتسح غاليا سنة ٤٠٦ ولكنه اضمحلّ اثر هجمات القوط عليه

٣) ياجوج وماجوج : من اجيال الجبابرة اعداء بني إسرائيل

والفراسة ، والصنائع الفائقة (١ ، وسائر الاحوال المعتدلة . واهل هذه الاقاليم التي وقفنا على اخبـارهم مثل العرب ، والروم ، وفارس ، وبني إسرائيل ، واليونان ، واهل السند ، والصين

ولما رأى النسّابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارهـا ، حسبوا ذلك لأجل الانساب ، فجعلوا اهل الجنوب كلهم السودان من وُلد حام ، وارتابوا في الوانهم . فتكلّفوا نقل تلك الحكاية الواهية ، وجعلوا اهل الشمال كلّهم ، او اكثرهم ، من وُلد يافث ؛ واكثر الأمم المعتدلة ، وأهل الوسط المنتحلين للعلوم ، والصنائع ، والملل ، والشرائع ، والسياسة ، والملك ، من وُلد سام . وهذا الزعم ، وان صادفَ الحقّ في انتساب هؤلاء ، فليس ذلك بقياس مطرد . انما هو إخبار عن الواقع ، لا أن تسمية اهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم الى حام الأسود . وما أدّاهم الى هذا الغلط الا اعتقـادُهم أن التمييز بين الأمم انمـا يقع بالأنساب فقط . وليس كذلك : فان التمييز للجيل او الأمّة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب ، وبني إسرائيل ، والفرس ؛ ويكون بالجهة (٢ والسمة كما للزنج ، والحَبَشة ، والصقالبة ، والسودان ؛ ويكون بالعوائد ، والشعار ، والنسب ، كما للعرب . ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم ، وخواصّهم ، ومميّزاتهم . فتعميم القول في أهل جهة معيّنة من جنوب او شمال بأنهم من وُلد فلان المعروف لما شملهم من نحلةٍ او لون

---

١) الصنائع الفائقة : مراد ابن خلدون بهذا التعبير ، ما نسمّيه اليوم «بالفنون الجميلة»

٢) الجهة : المقصود بها الجهة من الارض التي يسكنها ذاك الشعب

اوسمة وُجدت لذلك الأب ، انما هو من الأغاليط التي اوقع فيها الغفلةُ عن طبائع الأكوان والجهات . وان هذه كلّها تتبدّل في الأعقاب ولا يجب استمرارها : «سنّة الله في عباده ، ولن تجد لسنّة الله تبديلًا !» (١

المقدمة الرابعة

في اثر الهواء في اخلاق البشر

قد رأينا من خُلُق السودان ، على العُموم ، الخفّة ، والطيش ، وكثرة الطرب . فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق في كل قُطر . والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرَّر في موضعه من الحكمة ، أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشّيه ؛ وطبيعة الحزن بالعكس ، وهي انقباضه وتكاثُفه . وتقرّر أن الحرارة مُفشية للهواء والبُخار ، مُخَلْخِلَة له ، زائدة في كمّيته . ولهذا يجد المنتشي ، من الفرح والسرور ، ما لا يعبّر عنه وذلك بما يُداخل بُخار الروح في القلب ، من الحرارة الغريزية التي تبعثها سَوْرة الخمر في الروح من مزاجه . فيتفشّى الروح ، وتجيء طبيعة الفرح . وكذلك تجد المتنعمين بالحمّامات ، اذا تنفّسوا في هوائها ، واتصلت حرارة الهواء في ارواحهم ، فتسخّنت لذلك ، حدث لهم فرح ؛ وربما انبعث الكثير منهم بالغِناء الناشيء عن السرور

ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحارّ ، واستولى الحرُّ على

---

١) القرآن : (سورة : ٣٣ [الاحزاب] ٦٢)

امزجتهم ؛ وفي اصل تكوينهم ، كان في ارواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون ارواحهم ، بالقياس الى ارواح اهل الإقليم الرابع ، اشدَّ حرًّا ؛ فتكون اكثر تفشياً ، فتكون اسرع فرحاً وسروراً ، واكثر انبساطاً ؛ ويجيء الطيش على اثر هذه

وكذلك يلحق بهم قليلًا اهلُ البلاد البحرية . لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليهِ من اضواء بسيط البحر وأشعَّته، كانت حصَّتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفَّة موجودة اكثر من بلاد التلول والجبال الباردة . وقد نجد يسيراً من ذلك في اهل البلاد الجريديّة (١ ، او قريباً منها ، كيف غلب الفرح عليهم ، والخفَّة ، والغفلة عن العواقب ؛ حتى انهم لا يدَّخرون اقوات سنَتِهم ، ولا شهرِهم ؛ وعامَّة مأكلهم من أسواقهم . ولما كانت فاس ، من بلاد المغرب ، بالعكس منها في التوغل في التلال الباردة ، كيف ترى اهلها مطرقين إطراق الحزن ! وكيف افرطوا في نظر العواقب ، حتى ان الرجل منهم ليدَّخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ، ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه ، مخافةَ أن يُرزأ شيئاً من مدَّخره . وتتبَّعْ ذلك في الاقاليم والبلدان ، تجِدْ في الاخلاق أثرًا من كيفيات الهواء . والله الخلّاق العليم ! » (٢

وقد تعرَّض المسعودي للبحث عن السبب في خفَّة السودان وطيشهم ، وكثرة الطرب فيهم ، وحاول تعليله ، فلم يأتِ بشيء اكثر من أنهُ نقل

---

(١) البلاد الجريدية : مقاطعة في جنوبي امارة تونس ، تسمَّى ايضاً « بلاد الجريد » . ومن هذا الاسم الاخير اشتقَّ لها رحّالة اوروبا وجغرافيوها اسم « Biledulgerid » . — (٢) القرآن : (سورة ٣٦ [يس] : ٨١) .

عن جالينوس، ويعقوب ابن اسحق الكندي (١ أن ذلك لضُعف ادمغتهم، وما نشأ عنه من ضُعف عقولهم. وهذا كلام لا محصَّل له، ولا برهان فيه. « والله يهدي من يشاء الى صراطٍ مستقيم ! » (٢

المقدمة الخامسة

في اختلاف احوال العُمرَان في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

إعلم أنّ هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلّها يوجد بها الخصب، ولا كلّ سكّانها في رغدٍ من العيش. بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب، والأُدْم، والحنطة، والفواكه، لزكاء المنابت، واعتدال الطينة، ووفور العمران. وفيها الأرض الحرَّة التي لا تُنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة؛ فسكّانها في شظف من العيش مثل اهل الحجاز، وجنوب اليمن، ومثل الملثَّمين من صَنْهاجة الساكنين بصحراء المغرب واطراف الرمال فيما بين البَرْبَر والسودان. فانّ هؤلاء يفقدون الحبوب والأُدْم جملة؛ وانما اغذيتهم

١) الكندي : (او يوسف يعقوب بن اسحق) من اقدم فلاسفة العرب المتهورين سُمّي « فيلسوف العرب » لانهُ كان من اصل عربي، من قبيلة كندة، خلافاً لباقي زملائهِ المشاهير. ترك مؤلفات عديدة في الموسيقى، والهندسة، والفلك والنجوم، والطب، والمنطق، والسياسة، والفلسفة، والكحالة. ولكن لم يصل الينا من ذلك الا بعض قطع في علوم عصره وفلسفته. توفي نحو السنة ٨٧٣م.

٢) القرآن : (سورة ٢ [البقرة] : ١٣٦).

واقواتهم الألبان واللحوم. ومثل العرب ايضاً الجائلين في القفار؛ فانهم، وإن كانوا يـأخذون الحبوب والأُدْم من التلول (١)، إلاّ ان ذلك في الأحايين (٢)، وتحت رِقبةٍ من حاميتها، وعلى الإقلال لقلّة وَجدِهم (٣). فلا يتوصّلون منه الى سدّ الخلّة او دونهـا، فضلًا عن الرغد والخصب. وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان، وتعوضهم عن الحنطة احسن معاض. وتجد مع ذلك، هؤلاء الفاقدين للحبوب والادُم من اهل القفار، أحسن حالًا في جسومهم، واخلاقهم، من أهل التلول المنغمِسين في العيش : فالوانهم أصفى، واشكالهم أتمّ وأحسن، واخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات. هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم. فكثير مـا بين العرب والبرْبَر، فيما وصفناه، وبين الملثّمين وأهل التلول. يعرف ذلك من خَبَرَه

والسبب في ذلك، والله أعلم، أن كثرة الأغذية، ورطوباتها، تولّد في الجسم فَضَلات رديئة، ينشأ عنها بُعد أَقطارِه في غير نسبة (٤)، وكثرة

---

١) التلول : المراد بها مرتفعات المغرب المأهولة.

٢) في الأحايين : اي حيناً بعد آخر.

٣) الوَجْد : المال.

٤) كذا في نسخة باريس، وفيها ضمير « أقطاره » يعود الى الجسم وتكون أقطار بمعنى الجوانب فيكون المعنى ان الجسم يكبر حجمه ويسمن في غير نسبة. كذلك طبعها كاترمير (Quatremère) وكذلك فهمها دي سلان (De Slane) وترجمها الى الافرنسية. اما في نسخة الهوريني فقال : « تولّد في الجسم فضلات رديئة تنشأ عنها بَعْدَ إقطارها » حيث يعود الضمير الى الفضلات ويكون الإقطار بمعنى السيلان. ولعلّ الرواية الاولى اصحّ بدليل الجملة التالية : « وقبح الاشكال من كثرة اللحم كما قلناه... »

الأخلاط الفاسدة العفنة . ويتبع ذلك انكساف الالوان ، وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه . وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد الى الدماغ من أبخرتها الرديئة ، فتجيء البلادة ، والغفلة ، والانحراف عن الاعتدال بالجملة

واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال ، والنعام ، والمها ، والزرافة ، والحمر الوحشية ، والبقر (١) ، مع امثالها من حيوان التلول ، والارياف ، والمراعي الخصبة ؟ كيف تجد بينها بوناً بعيداً في صفاء أديمها ، وحسن رونقها وأشكالها ، وتناسب أعضائها وحدة مداركها . فالغزال أخو المعز ، والزرافة اخو البعير ، والحمار والبقر (٢) اخو الحمار والبقر ؟ والبون بينها ما رأيت . وما ذلك إلا لأجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه ، من الفضلات الرديئة ، والاخلاط الفاسدة ، ما ظهر عليها أثره . والجوع بحيوان القفر ، حسن في خلقها ، واشكالها ، ما شاء .

واعتبر ذلك في الآدميين أيضاً . فانا نجد اهل الاقاليم المخصبة العيش ، الكثيرة الزرع ، والضرع ، والادم ، والفواكه يتصف اهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم ، والخشونة في أجسامهم . وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم ، المقتصرين على الشعير او الذرة ، مثل المصامدة منهم ، واهل السوس ، وغمارة (٣) ؛ فتجد هؤلاء احسن حالاً في عقولهم وجسومهم . وكذا اهل بلاد المغرب ، على

---

١) والبقر : اي الوحشية منها . —

٢) الحمار والبقر : اي الوحشيان ، يقابلهما بالاهليين .

٣) المصامدة ، واهل السوس ، وغمارة : قبائل من بدو المغرب .

الجملة، المنغمسين في الأُدم والبرّ، مع أهل الأندلس، المفقود بأرضهم السمنُ جملةً؛ وغالب عيشهم الذُرة؛ فتجد لاهل الأندلس من ذكاء العقول، وخفّة الاجسام، وقبول التعليم، ما لا يوجد لغيرهم. وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة، مع اهل الحضر والامصار. فان اهل الامصار، وان كانوا مُكثرين مثلهم من الأُدُم، ومُخصبين في العيش، إلاّ ان استعمالهم إياها بعد العلاج بالطبخ، والتلطيف بما يخلطون معها؛ فيذهب لذلك غلظها، ويرقّ قوامها. وعامّة مآكلهم لحمان الضان والدجاج، ولا يغبطون السّمن لتفاهته؛ فتقلّ الرطوبات لذلك في اغذيتهم، ويخفّ ما تؤدّيه الى اجسامهم من الفضلات الرديئة. فلذلك تجد جسوم أهل الأمصار ألطف من جسوم اهل البادية الخشنين في العيش. وكذلك تجد المعوّدين بالجوع من أهل البادية، لا فضلات في جسومهم، غليظةً ولا لطيفة

أثر ذلك في التديّن

واعلم أن اثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة؛ فتجد المتقشّفين من اهل البادية او الحاضرة، ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذّ، احسن ديناً واقبالاً على العبادة، من أهل الترف والخصب. بل نجد اهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمّها من القساوة (١ والغفلة المتصلة بالإكثار من اللّحمان، والأُدم، ولُباب البرّ. ويختصّ وجود العبّاد والزهّاد لذلك بالمتقشّفين في غذائهم من اهل البوادي

---

١) القساوة: المراد بها قساوة القلب.

تأثير الجوع في المترفين والمتقشّفين

وكذلك نجد حال المدينة الواحدة، في ذلك، يختلف باختلاف حالها في الترف والخصب. وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش، المنغمسين في طيّباته، من اهل البادية، ومن اهل الحواضر والامصار، اذا نزلت بهم السنون، واخذتهم المجاعات، يسرع اليهم الهلاك، اكثر من غيرهم. مثل برابرة المغرب، وأهل مدينة فاس ومصر، فيما يبلغنا، لامثل العرب، اهل القفر والصحراء؛ ولا مثل اهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر؛ ولامثل اهل افريقية لهذا العهد، الذين غالب عيشهم الشعير والزيت؛ واهل الاندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت. فان هؤلاء وإن اخذتهم السنون والمجاعات، فلا تنال منهم ما تنال من اولئك؛ ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع، بل ولا يندر. والسبب في ذلك، والله أعلم، أن المنغمسين في الخصب، المتعوّدين للأدم والسمن خصوصاً، تكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية، حتى تجاوز حدها؛ فاذا خُولف بها العادة بقلّة الأقوات، وفقدان الادم، واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء، أسرع الى المعاء اليبس والانكماش؛ وهو ضعيف في الغاية، ولهذا عُدَّ من المقاتل؛ فيسرع اليه المرض، ويهلك صاحبه بسرعة. فالهالكون في المجاعات انما قتلهم الشبع المعتاد السابق، لا الجوع الحادث اللاحق. واما المتعوّدون للعيمة(١)، وترك الأدم والسمن، فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفة عند حدها من غير زيادة؛ وهي قابلة لجميع الاغذية الطبيعية. فلا يقع في معاهم، بتبدّل

---

١) العيمة: في الاصل شهوة اللبن؛ ويريد بها ابن خلدون: عادة اكل الالبان

الاغذية ، ييبس ولا انحراف . فيسلمون ، الغالب ، من الهلاك الذي يعرض لغيرهم ، بالخصب وكثرة الأدم في المآكل

تأثير العادة في الغذاء

وأصل هذا كلّه ان تعلم ان الاغذية وائتلافها ، او تركها ، انما هو بالعادة . فمن عوّد نفسه غذاء ، ولاءمه تناوُلُه ، كان له مألوفاً ؛ وصار الخروج عنه ، والتبدُّل به داء ، ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسُّموم واليَتُّوع (١) ، وما افرط في الانحراف . فامّا ما وُجد فيه التغذي والملاءمة ، فيصير غذاء مألوفاً بالعادة . فاذا اخذ الانسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضاً عن الحنطة ، حتى صار له دَيْدَناً ، فقد حصل له ذلك غذاء ، . واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شكّ . وكذا من عوّد نفسه الصبر على الجوع ، والاستغناء عن الطعام ؛ كما ينقل عن اهل الرياضات . فانا نسمع عنهم في ذلك أخبارًا غريبة ، يكاد ينكرها من لا يعرفها

والسبب في ذلك العادة . فان النفس ، إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها وطبيعتها ، لانها كثيرة التلوُّن . فاذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج ، والرياضة ، فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها

تعوّد الجوع

وما يتوهمه الاطباء من ان الجوع مُهلِك ، فليس على ما يتوهمونه ؛ إلا اذا حُملت النفس عليها دفعةً ، وقُطع عنها الغذاء بالكلية . فانه حينئذٍ ينحسم المعاء ، ويناله المرض الذي يُخشى معه الهلاك . واما اذا كان ذلك

---

١) اليَتُوع : واليتُّوع : فصيلة من النبات لها نُسْغ يشبه اللبن ، محرق ، مُضرّ .

القدر تدريجاً، ورياضةً، باقلال الغذاء شيئاً فشيئاً، كما يفعله المتصوّفة، فهو بمعزل عن الهلاك. وهـذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة. فانه اذا رجع الى الغذاء الاوّل دفعةً، خيف عليه الهلاك. وانما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج

ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصالًا واكثر. وحضر أشياخنا بمجلس السلطان ابي الحسن (١)، وقد رُفع اليه أمرأتان من اهل الجزيرة الخضراء (٢) ورُندة (٣) حبستا انفسهما عن الأكل جملةً منذ سنتين (٤)، وشاع امرُهما؛ ووقع اختبارهما، فصحّ شأنهما. واتصل على ذلك حالهما الى ان ماتتا. ورأينا كثيرًا من اصحابنا ايضاً، من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها، في بعض النهار، او عند الافطار. ويكون ذلك غذاءه. واستدام على ذلك خمس عشرة سنة. وغيرهم كثير ولا يُستنكر ذلك

منافع الجوع

واعلم أن الجوع اصلح للبدن من إكثار الاغذية بكل وجه، لِمَنْ قدر عليهِ، او على الإقلال منها. وان له اثرًا في الأجسام والعقول: في صفائها، وصلاحها، كما قلناه. واعتبر ذلك بآثار الاغذية التي تحصل عنها في الجسوم. فقد رأينا المتغذّين بلحوم الحيوانات الفاخرة، العظيمة

---

١) ابو الحسن: اشهر سلاطين بني مَرين، امراء فاس (١٣٣٠–١٣٥١) ملك المغرب بأسره وبعض الأندلس ٢) الجزيرة الخضراء: ميناء في جنوبي اسبانيا تعرف اليوم باسم الجزيراس (Algésiras) ٣) رُندة: مدينة في الاندلس.
٤) منذ سنتين: كذا في ترجمة دي سلان. وفي طبعة الهوريني وبعض النسخ: «منذ سنين».

الجثمان ، تنشأ أجيالهم كذلك . وهذا مُشاهَد في اهل البادية مع اهل الحاضرة . وكذا المتغذّون بألبان الابل ولحومها أيضاً ، مع ما يؤثّر في اخلاقهم من الصبر ، والاحتمال ، والقدرة على حمل الاثقال ، الموجود ذلك للابل ، وتنشأ امعاؤهم ايضاً على نسبة أمعاء الابل ، في الصحّة والغِلظ ؛ فلا يطرقها الوهن ، ولا ينالها من مدار الاغذية ما ينال غيرهم ، فيشربون اليتّوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة ، كالحنظل (١) قبل طبخه ، والدِرْياس والفُربيون (٢) ؛ ولا ينال امعاءهم منها ضرر . وهي ، لو تناولها اهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم ، بما نشأت عليه من لطيف الاغذية ، لكان الهلاك اسرع اليهم من طرفة العين ، لما فيها من السمّيّة .

ومن تأثير الاغذية في الابدان ما ذكره اهل الفلاحة ، وشاهده أهل التجربة ، أن الدجاج ، اذا غُذّيت بالحبوب المطبوخة في بَعر الابل ، واتخذ بيضها ثم حضنت عليه ، جاء الدجاج منها اعظم ما يكون . وقد يستغنون عن تغذيتها ، وطبخ الحبوب ، بطرح ذلك البعر مع البيض المحضَن ؛ فيجيء دجاجها في غاية العِظَم . وامثال ذلك كثيرة .

فاذا رأينا هذه الآثار من الاغذية في الابدان فلا شك ، أن للجوع ايضاً آثارًا في الابدان . لان الضدّين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه . فيكون تأثير الجوع في نقاء الابدان من الزيادات الفاسدة ، والرطوبات المختلطة المخلّة بالجسم والعقل ، كما كان الغذاء مؤثرًا في وجود ذلك الجسم . والله محيط بعلمه !

---

١) الحنظل : نبت يمتدّ على الارض كالبطيخ ، وهو شديد المرارة ، فيه سمّ .

٢) الدرياس والفربيون : انواع من فصيلة اليتّوعات يختلف لون أُسغها باختلاف الاماكن .

المقدمة السادسة

في اصناف المدركين من البشر بالفطرة او الرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

يبدأ ابن خلدون هذه المقدّمة بذكر النبوءة فيقرّر بعض صفاتها : كالغيبة حال الوحي ، وخُلو الخير ومجانبة المذمومات قبل الوحي ، ودعاء الانبياء قومهم الى الدين والعبادة ، وان يكون الانبياء ذوي حسب في قومهم ، وتقع على ايديهم الخوارق شاهدة بصدقهم. ثم يلقي نظرة اجمالية على ترتيب العالم البديع ، ويدرس النفس الانسانية ، وقواها ، «واستعدادها للانسلاخ عن البشرية الى الروحانية التي فوقها » وينتقل الى حالات هذه الانسلاخات المختلفة : فيبحث اولا في «النبوءة والوحي « الذي هو مفارقة البشرية الى المدارك الملكية » ؛ ثم في الكهانة ؛ثم في الرؤيا . ويتكلم بعد ذلك عن الذين يخبرون بالكائنات قبل وقوعها كالعرّافين ؛ وبعض المجانين ؛ والنائم والميت ، لاوّل موته او نومه ؛ واهل الرياضة من المصوّفة ؛ واهل الرياضة السحريّة من الهنود . وينهي بذكر بعض الحسابات والقوانين الصناعية لمعرفة الغيب كحساب «النيم» ؛ و«زايرجية العالم» اي جدول العالم المستدير .

ونحن نكتفي بنقل ما يقوله عن ترتيب الكون ، وفيه طرف فكرة عصرية عن تطوّر الكائنات وارتقائها :

ثم نظار الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن، ثم النبات، ثم الحيوان، على هيئة بديعة من التدريج : آخر افق المعادن متصل بأوّل افق النبات، مثل الحشائش وما لا بذر له . وآخر افق النبات، مثل النخل والكرم، متصل باول افق الحيوان، مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما الا قوّة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكوّنات أنّ آخر افق منها

مستعدّ، بالاستعداد القريب، لان يصيرَ اوّل افق الذي بعده. واتّسع عالم الحيوان، وتعدَّدت انواعه، وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان، صاحب الفكر والروية، يرتفع اليه من عالم القِرَدَة، الذي استجمع فيه الحسّ والادراك ولم ينتهِ الى الرويّة والفكر بالفعل. وكان ذلك اول افق من الانسان بعده. وهذا غاية شهودنا

وهاك الآن ما يقوله عن قوى النفس ومراكزها من الدماغ وهي ايضاً فكرة كثيراً ما شغلت علماء العصر :

... ثم يؤدّيه (١ الحسّ المشترك الى الخيال، وهو قوّة تمثّل الشيء المحسوس في النفس كما هو، مجرَّدًا عن الموادّ الخارجية فقط. وآلة هاتين القوّتين (اي الحسّ المشترك والخيال)، في تصرّفهما، البَطْنُ الاول من الدماغ: مقدّمه للاولى، ومؤخّره للثانية . ثم يرتقي الخيال الى الوهمية والحافظة: فالوَهمية لادراك المعاني المتعلّقة بالشخصيات، كعداوة زيد، وصداقة عمرو، ورحمة الاب، وافتراس الذئب؛ والحافظة لايداع المدركات كلّها، متخيّلة وغير متخيّلة؛ وهي لها كالخزانة تحفظها الى وقت الحاجة اليها وآلة هاتين القوّتين، في تصرّفهما، البطن المؤخّر من الدماغ: اوّله للاولى، ومؤخّره للأُخرى . ثم يرتقي جميعها الى قوة الفكر، وآلته البطن الاوسط من الدماغ، وهو القوّة التي تقع بها حركة الرويّة، والتوجّه الى التعقل...

---

١) اي ان الحسّ المشترك يؤدّي جميع المحسوسات المتفرّقة كالمسموعة، والملموسة، والمُبْصَرة، الى الخيال

فهرس

ابن خلدون

العمران البدوي

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد أفرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٢٨

١٥ — ١

ابن خلدون

١٣٣٢ – ١٤٠٦

الرجل

ولد ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون في تونس سنة ١٣٣٢ ، من أسرة عربية الأصل ، تمتّ بنسبها الى اقيال كندة ثم الى شرفاء اشبيلية . وكان قد اشتغل افرادها بالسياسة ، فنشأ في ابن خلدون ميل الى تلك المغامرات . فما اتم العشرين من سنيه ، وكان قد مات ابواه بالطاعون ، حتى دخل في خدمة امير تونس . ولكنه لم يلبث ان انتقل الى مراكش فخدم سلطانها مدّة . وما زال يتنقل عند سلاطين المغرب واسبانيا ، تارة مرفوعاً ، وطوراً مخذولاً ، حتى سئم السياسة وتلاعباتها فاعتزلها مدة سبعة اعوام (١٣٧٥ – ١٣٨٢) صرف منها اربعة في قلعة ابن سلامة ، فكتب فيها مقدّمته الشهيرة وبدأ تاريخه

وفي سنة ١٣٨٢ رحل الى المشرق فاقام مدّة في القاهرة يعلّم ويتولّى القضاء . ثم ارسل يطلب عائلته ، فغرقت في الطريق . حينئذٍ ذهب الى مكة فحج ، ورجع الى مصر فلازم معيشة الانفراد الى سنة ١٣٩٤ . فرجع فيها الى القضاء مرّات . وكان ان ظهر تيمورلنك في اراضي الشام ، فذهب ملك مصر لمحاربته واستصحب ابن خلدون معه ، فاستفاد هذا من تلك

الفرصة واتصل بالطاغية المشهور ، فامتدحه ورجع بعد ان نال الامــان . وكان منصبه في القضاء المالكي ، في مصر ، ينتظره ؛ فعاد اليه بعد المتاعب حتى مات سنة ١٤٠٦

اما اخلاقه وصفاته فجملها انــه كان كثير الثقة بنفسه ، مغامرًا في طلب المعالي ، صاحب دهاء وتدبير عجيبين يقرنهما الى كثير من الانانية وحب الظهور . وكان ايضاً متأثرًا جدًا بتربيته الدينية ، حتى رافقه هــذا التأثر في الكثير من احكامه

وقد بوسّعنا كثيرًا في درس حياة الرجل واخلاقه في مقدّمة الجزء الثالث عشر من الروائع ، فلتُراجع

آثاره

قلنا في مقدّمة الجزء المذكور ، ان لابن خلدون آثارًا شعرية متوسطة القيمة ، وآثارًا نثرية لم يصلنا منها الّا التاريخ . ثم ألقينا نظرة اجماليــة على التاريخ وتقسيمه ، وقيمة ابن خلدون مؤرّخاً

وقد حلّلنا ، في الجزء السابق ، «المقدّمة» المشهورة ، وذكرنا نسخها . ثم درسنا فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، فكانت النتيجة ما يلي :

الفيلسوف الاجتماعي

خلاصة ما يُقال عن آراء ابن خلدون، في مقدّمته ، انه ابتدع علماً جديدًا لم يسمّه هو ؛ انما نقدر نحن ان ندعوه «بالفلسفة الاجتماعية» . اما موضوع هذا العلم فهو «العمران البشري، والاجتماع الانساني مع ما يلحقه من العوارض والاحوال» . والمؤلف يستخدم التاريخ لتحقيق هـذا العلم ، ولا يبدأ بهذا العلم، كما قـال البعض، ليصحّح التاريخ . فان همه ليس تصحيح الروايات ليؤلف منها تاريخاً صادقاً، بل نقدها ليختار منا ما يوافقه لتقرير علمه ؛ فيُصبح هذا العلم، في عرفه، غاية لا واسطة ؛ ويصبح غير موافق للاسم الذي ينعته به الكتاب عادة، اذ يسمّونه «فلسفة التاريخ»

وقد سار ابن خلدون لتحقيق غايته هذه على طريقة عقلية، استنتجها من مظاهر الكون. فكان موضوع درسه الاوّل البيئة الجغرافية وتأثيرها في اخلاق الشعب واحوالهم . ثم درس الظواهر الاجتماعية واشهرها الدين، حتى انتهى الى البحث في الحياة الاجتماعية . وهناك اعطى قانونه الثـلاثي المهمّ في تطوّر الدول من حياة البداوة، الى حياة الظفر والتغلّب فالملك، الى الاضمحلال بالانغماس في الترف فظهور دولة جديدة . وبهذه المناسبة تكلّم عن دور « العصبيّة » في تعزيز الملك . فكانت كل ابحاثه غاية في الطرافـة رفعته، في اقسامها المختلفة، الى مستوى مونتسكيو، وتارد، ومكياڤيل (راجع مقدّمة الجزء السابق ص : ر ، وما يليها)

الكاتب

من الآراء الشائعة ، والاحكام السائرة ، التي نراها في اكثر كتب الادب ونسمعها من معظم الادباء، انَّ ابن خلدون من اكبر كتَّاب العرب، وان اسلوبه في الأوج من الطرق الكتابية ، وان انشاءه ممتاز يصلح ان يكون نموذجاً يسير عليه الكتَّاب ويتأثر به المنشؤون . وفعلًا فقد سار على هذا النموذج كثير من الكتبة ، وتأثر به عدَّة من المنشئين ، مدة نصف قرن، بدؤها عام ظهور «المقدِّمة» مطبوعة ، لاول مرَّة ، في بولاق سنة ١٨٥٧

على اننا يلزمنا ان نستقبل هذا الرأي الشائع ، كسائر امثاله ، بمنتهى التحفُّظ . فنُعمل عقلنا في مؤدَّاهُ ، وننتقده بهدوٍّ وانصاف . حتى اذا رأيناه موافقاً للحقيقة ، اقررناه وتبعنا سلفاءنا شاكرين ، والَّا اصلحناه وخالفناهم عاذرين

وقبل ان نبحث في صفات انشاء مؤرّخنا ، وهل تؤهله لهذا المكان العالي الذي احتلّه ، ينبغي لنا ان نفتش عن سبب هذه الشهرة في المحيط الخارجي ، وعمَّا اذا لم يكن للظروف من يد في اقرار هذا الحكم . فنرى ان المقدِّمة كانت من اوائل كتب الادب العربي المنشورة بالطبع . فتلقَّاها

ادباء النهضة الاولى ، ولا كتاب غيرها لديهم يستندون اليه في معانيهم وطرق تعبيرهم. لانها ظهرت قبل « كليلة ودمنة » « والاغاني » الكبير باحدى عشرة سنة ، وقبل «العقد الفريد» بسبع وعشرين سنة ، وقبل مؤلفات الجاحظ بنحو اربعين سنة . ثم اعيد طبعها في مصر، وطُبعت مرّات في بيروت؛ فكانت كتاب الادباء الوحيد ، ودستور انشائهم الراقي . وكان ما يرونه في معانيها الشائقة ، ونتائجها الصائبة في اكثرها ، وافكارها الجديدة في عصرهم ، يغتفر سقطات تعبيرها ، ويمحو لديهم تقلقل الفاظها ، واضطراب اسلوبها ، فلا ينتبهون الا الى المحاسن ، ولم يكن بوسعهم غير ذلك ، لما ذكرناه من الاسباب . فنفهم اذن سبب تلك الشهرة السائرة

اما اليوم وقد نُشرت اكثر الكتب الادبية ، فعرفنا المُنشيء الرزين في ابن المقفّع ، والاديب اللطيف في ابن عبد ربه ، والمصوّر الدقيق في ابي الفرج الاصبهاني، والكاتب الشخصي في الجاحظ ، فنرى اسلوب ابن خلدون يتخاذل امام هؤلاء ، وشهرته تتضاءل شيئاً فشيئاً . وانهُ لمن واجبنا الادبي ان ندرس صفات انشائه درساً منصفاً فنبين انه فيلسوف كبير ، وعالم اجتماعي دقيق ، كما قلنا ، ولكنه ليس بالكاتب

ابن خلدون مغربي النشأة والتربية ، دخل محيط الادب في القرن الرابع عشر . وقد رأينا انه تجاوز بيئته وزمانه بمراحل في ما يختصّ بالافكار والآراء . اما في الانشاء ، فلم يكن عنده من الشخصية الادبية ما يدفعه الى التخلّص من تأثير الزمان والمكان . وكأنه انصرف بكليته الى الفكر فلم يهتمّ بالتعبير ، فبقي في اسلوبه مغربياً ، ومن القرن الرابع عشر :

نال من زمانه ، طريقة التكلّف ، وزيّ التبرّج السطحي ، فكثرت في جمله السجعات السخيفة بعض الاحيان ، والاستعارات والتشابيه الغريبة ، والقياسات المعقّدة ، والاسهاب المملّ تارة ، والايجاز الغامض اخرى ؛ حتى ادّى هذا الاسلوب المقلقل الى اضطراب في ترتيب الافكار ، وعدم انتظام في تناسقها ، ومراجعات عديدة تكاد تحول بين المطالع وافكار المؤلف النفيسة . ولنا شاهد على ذلك كثير من فصول الفصل الثاني من المقدّمة ، المنشورة في هذا الجزء ، ولاسيا ما يختصّ «بالعصبيّة» وشروط الملك ، وسبب اضمحلاله . فقد بذلنا الجهد في ايضاح ذلك بما وضعناه من الفواصل والنقاط بين الجمل ، وبما علّقناه من الشروح . وكذلك يرى المطالع كثيراً من الغموض والتعقّد ، في باب غزوات التبابعة ، المنشور في الجزء الثالث عشر من « الروائع » ، وخصوصاً في الصفحتين ١٠ و ١١ وذاك اطول من ان يمكننا نقله

اما تأثير المحيط الذي نشأ فيه الكاتب فيظهر خاصّة في التعقّد الناتج عن الاكثار من الضمائر ، والاسماء الموصولة ، والخلط بين الالفاظ ، وبعض الاغلاط اللغوية والنحوية . وهي صفة نراها في انشاء اكثر كتّاب المغرب ، الذين يقصّرون عادةً عن متانة الشرقيين ، ولا يدركون وضوح الاندلسيين ؛ فيقرب مؤلفنا ، في استعماله بعض الكلمات في غير مواضعها ، من ابن بطوطة ، وان يكن ابن خلدون اطول نفساً ، وامتن تركيباً من الرحّالة الشهير . واليكم مثلاً على الاكثار من الضمائر في هذه القطعة المأخوذة عن بحثه في آداب الرشيد . قال بعد ان نفى عن الخليفة تهمة السكر ، وقد وضعنا بين هلالين الاسم الذي ينوب عنه الضمير ، فيسهل المطالع

تحقق الغموض الذي يؤدي اليه اسلوب المؤلف:

« وانظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصــة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أحضر له (للرشيد) السمك في مائدته (الرشيد) فحماه (ضمير الفاعل لجبريل وضمير المفعول للرشيد) عنه (عن السمك) ثم امر (جبريل) صاحب المائدة بحمله (بحمل السمك) الى منزله (منزل جبريل) وفطن الرشيد وارتاب بــه (بجبريل) ودسّ خادمه (خادم الرشيد) حتى عاينه (عاين جبريل) يتناوله (اي تناول السمك) » (١

فليقرأ المطالع هذا المقطع بسرعة، دون انتبــاه الى الشروح، ولير هل يفهم فكر المؤلف بسهولة! ثم ليتبصّر، غير مأمور، بهذا المقطع الثاني المأخوذ من البحث في « فائدة التاريخ العام»:

«واما لهذا العهد وهو آخر المئة الثامنة فقد انقلبت احوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدّلت بالجملة واعتاض من اجيال البربر اهله على القــديم بمن طرأ فيه من لدن المئة الخامسة من اجيال العرب لما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا عامّة الاوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم.» (٢

واذا اضفنا الى هذا الغموض، الناتج عن الاكثار من الضمائر واسماء الموصول، ما نراه من الخلط بين معاني الكلمات، خصوصاً في الابحاث عن «الحسب» ونهايته المنشورة في هذا الجزء، اذ يستعمل الكاتب الالفاظ: نهاية، غاية، كمال، دون تمييز بين معانيها فيريد بها تارةً اعلى درجة من

---

١) الروائع: الجزء ١٣ ص: ٢١

٢) الروائع الجزء: ١٣ ، ص: ٣٣ ، وقد اجتهدنا في ايضاح هــذا المقطع بالفواصل والنقط والشروح

الحسب او تمامه ، وطوراً اضمحلاله وانقراضه ؛ عنـد ذاك نرى بحق وانصاف ، ان ابن خلدون فيلسوف معتبر ، واجتماعيٌّ دقيق ، ولكنه ليس بالكاتب الكبير

مآخذ

يُضاف الى ما ذكر في مقدّمة الجزء الثالث عشر :

محمد لطفي جمعه : ابن خلدون — في تاريخ فلاسفـة الاسلام — مصر ، ١٩٢٧

كتاب العبر

وديوان المبتدا والخبر

في ايام

العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم

من ذوي السلطان الاكبر

الفصل الثاني

العمران البدوي

الامم الوحشية والقبائل — العرب

العمران البدوي

الامم الوحشية والقبائل — العرب

الفصل الاول

في ان اجيال البدو والحضر طبيعية

اعلم ان اختلاف الأجيال، في أحوالهم، انما هو باختلاف نِحلتهم من المعاش. فانَّ اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله، والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط، قبل الحاجي، والكمالي (١. فمنهم من يستعمل الفَلْح من الغراسة، والزراعة؛ ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الشاء، والبقر، والمعز، والنحل، والدود للقزّ، لنتاجها، واستخراج فضلاتها. وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولا بدّ، الى البدْو (٢ لانه متسع لما لا يتسع له الحواضر، من المزارع، والفُدُن (٣،

---

١) يقسم ابن خلدون مرافق العيش الى ثلاثة انواع يعبّر عنها بالكلمات: الضروري، والحاجي، والكمالي. « فالضروري » هو ما لا بدّ منه في المعيشة، والذي بدونه لا تكون حياة، و« الحاجي » هو ما نسميه ايضاً باللازم الذي بدونه ينقص شيء من المعيشة، و« الكمالي » هو ما يكون للرفاهية ثم الترف

٢) البَدْو : في الاصل، الصحراء وهو المراد، ثم أُطلقت على سكان الصحراء

٣) الفُدُن : جمع الفدّان وهو المساحة للزرع، وحُصرت، في الاستعمال العصري، بمساحة اربعمائة قصبة مربّعة

والمسارح للحيوان ، وغير ذلك . فكان اختصاص هؤلاء بالبدو امراً ضرورياً لهم . وكان حينئذٍ اجتماعهم ، وتعاونهم في حاجاتهم ، ومعاشهم ، وعمرانهم ، من القوت ، والكسوة ، والدفء ، انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ، ويحصّل بُلغة العيش من غير مزيد عليه ، للعجز عما وراء ذلك

ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المنتحلين المعاش ، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرَّفه ، دعاهم ذلك الى السكون والدعة ؛ وتعاونوا في الزائد على الضرورة ، واستكثروا من الاقوات ، والملابس والتأنق فيها ، وتوسعة البيوت ، واختطاط المدن والامصار للتحضُّر

ثم تزيد أحوال الرفه والرغد ، فتجيءُ عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت ، واستجادة المطابخ ؛ وانتقاء الملابس الفاخرة في انواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ؛ ومعالاة البيوت والصروح ، وإحكام وضعها في تنجيدها ؛ والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوَّة الى الفعل ، الى غايتها . فيتخذون القصور والمنازل ، ويُجرون فيها المياه ، ويُعالون في صروحها ، ويبالغون في تنجيدها ، ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس ، او فراش ، او آنية ، او ماعون وهؤلاء هم الحضر ، ومعناه : الحاضرون ، اهل الامصار والبُلدان . ومن هؤلاء من ينتحل ، في معاشه ، الصنائع ؛ ومنهم من ينتحل التجارة . وتكون مكاسبهم انمى وارفه من اهل البدو ؛ لأن احوالهم زائدة على الضروري ، ومعاشهم على نسبة وَجدِهم (١

فقد تبيّن ان اجيال البَدْوِ والحضر طبيعية لا بدَّ منها ، كما قلناه

---

١) الوَجد : المال

الفصل الثاني

في ان جيل العرب (١ في الخلقة طبيعي

قد قدمنا، في الفصل قبله، أن اهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفَلح، والقيام على الأنعام. وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات، والملابس، والمساكن، وسائر الاحوال والعوائد؛ ومقصّرون عما فوق ذلك من حاجي او كمالي. يتخذون البيوت من الشعر او الوبر او الشجر، او من الطين والحجارة غير منجّدة. انما هو قصد الاستظلال والكنّ، لا ما وراءه؛ وقد يأوون الى الغيران والكهوف. واما اقواتهم فيتناولون بها يسيراً، بعلاج او بغير علاج البتّة، إلاّ ما مسّته النار

فمن كان معاشه منهم في الزراعة، والقيام بالفَلح، كان المقام به أولى من الظَعن. وهؤلاء سكّان المدر (٢، والقُرى، والجبال؛ وهم عامّة البَرْبَر والأعاجم

ومن كان معاشه في السائمة، مثل الغنم والبقر، فهم ظُعّن، في الاغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم. فالتقلّب في الارض اصلحُ بهم، ويسمّون «شاوية»، ومعناه: القائمون على الشاء والبقر. ولا يُبعدون في القَفر لفقدان المسارح الطيّبة. وهؤلاء مثل البَرْبَر، والترك، واخوانهم من التُركمان، والصقالبة

واما من كان معاشهم في الإبل فهم اكثر ظَعْناً، وأبعد في القفر

---

١) العرب: في هذا الفصل وما يليه، يقصد ابن خلدون «بالعرب» البَدو منهم، لا غير

٢) المَدَر: المدن والقرى

مجالاً ؛ لان مسارح التلول ، ونباتها ، وشجرهـا ، لا تستغني بها الابل في قوام حياتها ، عن مراعي الشجر في القفر ، وورود مياهه الملحة ؛ والتقلّب ، فصلَ الشتاء ، في نواحيه ، فرارًا من اذى البَرْدِ الى دِفء هوائـه ، وطلباً لمفاحص (١ النِتاج في رماله ؛ اذ الابل اصعب الحيوان فِصـالاً ومخاضاً ، واحوجها في ذلك الى الدفء . فاضطُرّوا الى إبعـاد النُّجعة . وربما ذادتهم الحامية عن التلول ايضاً ، فأوغلوا في القفار نفرةً من النصفة منهم ، والجزاء بعدوانهم (٢ . فكانوا ، لذلك ، اشدَّ الناس توحُّشاً ، وينزلون من اهل الحواضر ، منزلة الوحش غيرِ المقدور عليه ، والمفترس من الحيوانات العُجم . وهؤلاء هم العرب ؛ وفي معنـاهم ظواعن البَرْبَر ، وزِنَاتة ، بالمغرب ؛ والاكراد ، والتركمان ، والترك ، بالمشرق . الّا ان العرب ابعد نُجعة ، واشدّ بداوة لانهم مختصّون بالقيام على الابل فقط . وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معاً

فقد تبيّن أن جيل العرب طبيعي ، لا بدَّ منهُ في العُمران . والله ، سبحانه وتعالى ، اعلم !

الفصل الثالث

في ان البدو اقدم من الحضر ، وسابق عليه ؛ وان البادية اصل العمران ، والامصار مددٌ لها

قد ذكرنا ان البـدو هم المقتصرون على الضروري في احوالهم ،

١) مفاحص : ج. مَفْحص : الموضع الذي يحفره الطير ليبيض فيه — هنا : الحفرة التي تلدفيها الإبل   ٢) اي هرباً من معاقبتهم على اساءتهم السابقة

العاجزون عما فوقه ؛ وأن الحضر المُعتنون بحاجات الترف والكمال ، في احوالهم وعوائدهم . ولا شك ان الضروري اقدم من الحاجي والكمالي ، وسابق عليه . لان الضروري أصل ، والكمالي فرعٌ ناشيء عنه . فالبدو أصل للمدن والحضر ، وسابقٌ عليها . لان اول مطالب الانسان الضروري ؛ ولا ينتهي الى الكمال والترف الّا اذا كان الضروري حاصلًا . فخشونة البداوة قبل رقّة الحضارة . ولهذا نجد التمدّن غايةً للبدوي يجري اليها ، وينتهي بسعيه الى مُقترحه منها . ومتى حصل على الرياش ، الذي تحصُل له به احوال الشرف ، وعوائده ، عاج الى الدعة ، وامكن نفسه من قياد المدنية . وهكذا شأن القبائل المتبدّية كلهم . والحضريّ لا يتشوّف الى احوال البادية ، الّا لضرورة تدعوه اليها ، او لتقصير عن احوال اهل مدينته

ومما يشهد لنا ان البدو أصلٌ للحضر ، ومتقدّم عليه ، أنّا اذا فتّشنا أهلَ مِصرٍ من الامصار ، وجدنا اوّلية اكثرهم من اهل البدو الذين بضاحية ذلك المصر وفي قراه ؛ وانهم ايسروا فسكنوا المِصر وعدلوا الىّ الدعة والترف الذي في الحَضر . وذلك يدلّ على ان احوال الحضارة ناشئة عن احوال البداوة

ثم ان كل واحد من البدو والحضر يتفاوت الاحوال من جنسه ، فربّ حيٍّ أعظم من حيّ ؛ وقبيلة اعظم من قبيلة ، ومصرٍ أوسع من مصر ؛ ومدينة اكثر عمراناً من مدينة

فقد تبين ان وجود البدو متقدّم على وجود المدن والامصار ؛ واصلٌ لها . كما ان وجود المدن والامصار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية . والله اعلم !

الفصل الرابع

في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر

وسببه ان النفس، اذا كانت على الفِطرَة الاولى، كانت متهيّئة لقبول ما يَرِدُ عليها وينطبع فيها من خيرٍ او شرّ. قال (صلعم): «كل مولود يولد على الفِطرة. فأبواه يهوّدنه، او ينصّرانه، او يُمجّسانه.» وبقدر ما يسبق اليها من احد الخُلقين تبعد عن الآخر، ويصعب عليها اكتسابه. فصاحب الخير، اذا سبقت الى نفسه عوائد الخير، وحصلت لها ملكته، بَعُد عن الشرّ، وصعب عليه طريقه. وكذا صاحب الشرّ، اذا سبقت اليه ايضاً عوائده

واهل الحضر، لكثرة ما يعانون من فنون الملاذّ، وعوائد الترف، والاقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوّثت انفسهم بكثير من مذمومات الخُلق والشرّ، وبعُدت عليهم طُرُق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك؛ حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في احوالهم؛ فتجد الكثير منهم يقذعون في اقوال الفحشاء في مجالسهم، وبين كُبَرَائهم، واهل محارمهم (١)؛ لا يصدّهم عنه وازع الحشمة، لما اخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً

واهل البدو، وان كانوا مُقبلين على الدنيا مثلهم إلّا أنه في المقدار الضروري، لا في الترف، ولا في شيء من اسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها، وما يحصل فيهم من

---

(١) اهل محارمهم: اي نساؤهم

مذاهب السوء ، ومذمومات الخُلق ، بالنسبة الى اهل الحضَر ، اقلُ بكثير . فهم اقرب الى الفطرة الاولى ، وابعد عمّا ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقُبحها . فيسهُل علاجهم عن علاج الحضر ، وهو ظاهر . وقد نوضح فيما بعـد ان الحضارة هي نهاية العمران ، وخروجه الى الفساد ، ونهاية الشرّ ، والبعد عن الخير

فقد تبين ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضر . «والله يُحب المتقين» (١

الفصل الخامس

في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضر

والسبب في ذلك ان اهـل الحضَر القوا جنوبهم على مِهاد الراحة والدعة ، وانغمسـوا في النعيم والترف ؛ ووكلوا امرهم ، في المدافعـة عن اموالهم وانفسهم ، الى واليهم ، والحاكم الذي يسوسهم ، والحامية التي تولّت حراستهم . واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم ، والحِرز الذي يحول دونهم . فلا تهيجهم هَيْعَة (٢ ، ولا ينفر لهم صيد . فهُم غارّون ، آمنون ، قد القوا السلاح . وربيت على ذلك منهم أجيـال ، وتنزّلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عِيالٌ على ابي مثواهم (٣ ؛ حتى صار ذلك خُلقاً لهم يتنزّل منزلة الطبيعة

---

١) القرآن : (سورة ٩ [التوبة] : ٤)

٢) الهيعة : صوت العدو المُفزع ، ثم كل صوت يبعث على الفزع

٣) ابو مثواهم : اي رئيس عائلتهم

واهل البدو لتفرّدهم عن المجتمع ، وتوحّشهم في الضواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الاسوار والابواب ، قائمون بالمدافعة عن انفسهم ، لا يكلونها الى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفّتون عن كل جانب في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع إلّا غِرارًا (١) في المجالس ، وعلى الرحال ، وفوق الاقتاب (٢) ؛ ويتوجّسون للنبآت (٣) والهيعات ؛ ويتفرّدون في القفر والبيداء ، مُدلين بيأسهم ، واثقين بأنفسهم ؛ قد صار لهم البأس خُلقاً ، والشجاعة سجيّة ، يرجعون اليها متى دعاهم داعٍ ، او استنفرهم صارخ . وأهل الحضر ، مهما خالطوهم في البادية ، أو صاحبوهم في السفر ، عيال عليهم ، لا يملكون معهم شيئاً من امر انفسهم . وذلك مُشاهَد بالعيان . حتى في معرفة النواحي ، والجهات ، وموارد المياه ، ومشاريع السُبُل . وسبب ذلك ما شرحناه : واصله ان الانسان ابن عوائده ، ومألوفه ؛ لا ابن طبيعته ومزاجه . فالذي أَلِفه من الاحوال حتى صار له خُلقاً وملكة وعادة ، تنزّل منزلة الطبيعة والجبلة . واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرًا صحيحاً . والله يخلق ما يشاء ! (٤)

---

١) الا غِرارًا : اي قليلًا — الغِرار : القليل من النوم وسواه ؛ العَجَلة
٢) الأقتاب : ج . قَتَب : الرِحل او مقدَّمه
٣) النَبآت : ج . نَبأة : الصوت الخفي ، وقد تحصر بصوت الكلاب

الفصل السادس

في ان مُعاناة اهل الحضر للأحكام مُفسِدة للبأس فيهم ، ذاهبة بالمنفعة منهم

يلاحظ المؤلّف في هذا الفصل أن اعتياد الحضريين الخضوع للسلطة ، وقيامهم بالعقوبات المفروضة عليهم ، وانقيادهم للمؤدّبين من معلّمين وحكام ، يكسر سورة بأسهم ويُكسبهم المذلة

الفصل السابع

في ان سُكنى البدو لا تكون الا للقبائل اهل العصبيّة

اعلم ان الله سبحانه ركّب في طبائع البشر الخيرَ والشرّ كما قال تعالى : « وهديناه النَجدَين»[١] وقال : « فألهَمَهَا فجورَها وتقواها »[٢] والشرُّ اقرب الخِلال اليه ، اذا أُهمل في مَرْعيِ عوائده ، ولم يهذّبه الاقتداء بالدين . وعلى ذلك الجمُّ الغفير ، الا من وفّقــه الله . ومن اخلاق الشرّ فيهم[٣] الظلمُ والعدوان بعضٌ على بعض : فمن امتدَّت عينه الى متــاع اخيه ، فقد امتدَّت يده الى اخذه ، الّا ان يصدَّه وازع . كما قال :

١) القرآن (سورة ٩٠ [البلد] : ١٠) ويفهم ابن خلدون «بالنَجدين» الخير والشرّ؛ وكذلك فسرها البيضاوي

٢) القرآن (سورة ٩١ [الشمس] : ٨)

٣) فيهم : الضمير للناس

والظلم من شِيَمِ النفوس . فان تَجِد
ذا عفّةٍ ، فلِعلّةٍ لا يظلمُ ! (١

فاما المدن والامصار فعُدوان بعضهم على بعض يدفعهُ الحُكام والدولة ، بما قبضوا على ايدي مَن تحتهم من الكافّة ، ان يمتدّ بعضهم الى بعض ، او يعدو عليه . فهم مكبوحون بحكمة القَهر والسُلطان عن التظالم . إلا اذا كان من الحاكم بنفسه . واما العُدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار ، عند الغفلة او الغِرّة ليلًا ، او العجز عن المقاومة نهارًا ؛ او يدفعه ذياد الحامية من اعوان الدولة ، عند الاستعداد والمقاومة

واما أحياء البدو فيَزَع بعضَهم عن بعض. مشايخُهم وكُبَرَاؤهم بما وقر (٢ ، في نفوس الكافة لهم ، من الوَقار والتجلّة . واما حِلَلُهم (٣ فانما يذود عنها ، من خارج ، حامية الحيّ من انجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم . ولا يصدق دفاعهم وذيادُهم إلّا اذا كانوا عصبيّة ، واهل نسب واحد . لانهم بذلك تشتدّ شوكتهم ، ويُخشى جانبهم . إذ نعرة (٤ كل احدٍ على نسبه وعصبيته أهمّ ؛ وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي ارحامهم وقرباهم موجودة في الطبائع البشريّة ؛ وبها يكون التعاضد والتناصر ، وتعظم رهبة العدوّ لهم . واعتبر ذلك فيما حكاه

---

١) البيت للمتنبي – راجع [الروائع : ح ١١ ، ص : ٣٣ ، البيت : ٢٧٥]
٢) وقر : ثبت
٣) حللهم : ج . حِلّة : المجلس ، المجتمع ، والمراد بها منازل البدو
٤) النَعرة : من نَعَر القوم : هاجوا واجتمعوا

القرآن عن إخوة يوسف، عليه السلام، حين قالوا لابيه (١: « لئن اكله الذئبُ، ونحن عُصبة، إنّا إذًا لخاسرون! » والمعنى انه لا يُتوهّم العدوان على احدٍ مع وجود العصبة له. (٢ واما المتفرّدون في انسابهم، فقلّ ان تصيب احدًا منهم نعرة على صاحبه. فاذا أظلم الجوّ بالشرّ يوم الحرب، تسلّل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفةً واستيحاشًا من التخاذل. فلا يقدرون، من اجل ذلك، على سُكنى القفر، لِما انهم حينئذٍ طعمةٌ لمن يلتهمهم من الامم سواهم. واذا تبيّن ذلك في السُكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية، فبمثله يتبين لك في كل أمرٍ يحمل الناس عليه: من نبوّة، او اقامة ملك، او دعوة. إذ بلوغ الغَرَض من ذلك كلّه انما يتمّ بالقتال عليه، لما في طبائع البشر من الاستعصاء. ولا بدّ في القتال من العصبيّة، كما ذكرناه آنفاً. فاتخذه إماماً تقتدي به فيما نورده عليك بعد، والله الموفق للصواب!

---

١) القرآن: (سورة ١٢ [يوسف]: ١٤)

٢) والواقع ان شرح ابن خلدون منحرف عن الصواب، اذ لا مطابقة بين نظريّته في العصبيّة التي هي «التعصّب الجنسي» ولفظة «العصبة» الواردة في هذا النص من القرآن، وهي بمعنى «الجماعة». وقد لاحظ ذلك الدكتور طه حسين، وزاد ان ابن خلدون كان يخاف قيامة فقهاء الاسلام الذي «كان من اهمّ مبادئه الغاء تلك العصبية المبنية على صِلَة الرحِم ... ومن غاياته ان تُدمج جميع الشعوب العربية بادئ بدء، ومن ثَمَّ تُدمج كل الشعوب الاخرى في شعب واحد...» فاتاهم بتلك الآية كي يُبرهن انه لا يخرج عن حدود الدين في نظريّته المهمّة، «فخدع بذلك الدهاء المتدينين من ابناء عصره...» (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية — ص ٨٦ — ٨٧)

الفصل الثامن

في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه

وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر ، الّا في الاقل . ومن صِلَتها النعرة على ذوي القُربى ، واهل الارحام أن ينالهم ضَيم ، ان تصيبهم هلكة . فان القريب يجد في نفسه غضاضةً من ظلم قريبه او العداء عليه ؛ ويودّ لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك : نزعةٌ طبيعية في البشر مُذ كانوا . فاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جدًّا بحيث حصل به الاتحاد والالتحام ، كانت الوصلة ظاهرة ، فاستدعت ذلك بمجرّدها ووضوحها . واذا بعُد النسب بعض الشيء ، فربما تُنوسي بعضها ، ويبقى منها شهرة ، فتحمِل على النصرة لذوي نسبه بالامر المشهور منه ، فرارًا من الغضاضة التي يتوهّمها في نفسه من ظلمِ ، وهو منسوب اليه بوجهٍ .

ومن هذا الباب الولاء والحِلف ، اذ نعرة كل احد على اهل ولائه ، وحلفه ، للأنفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها ، او قريبها ، او نسيبها بوجهٍ من وجوه النسب . وذلك لاجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب ، او قريباً منها . ومن هذا تفهم معنى قوله (صلعم) : « تعلّموا من انسابكم ما تصلون به أرحامَكم » بمعنى أن النسب انما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام ، حتى تقع المناصرة والنعرة . وما فوق ذلك مستغنى عنه ؛ اذ النسب امر وَهمي لا حقيقة له ، ونفعه انما هو في هذه

الوُصلة والالتحام . فاذا كان ظاهرًا واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قُلناه. واذا كان انما استفاد من الخبر البعيد، ضعُف فيه الوَهم وذهبت فائدته، وصار الشغل به مجاناً، ومن اعمال اللهو المنهيّ عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم: «النسب علمٌ لا ينفع، وجهالة لا تضرّ.» بمعنى ان النسب اذا خرج عن الوضوح، وصار من قبيل العلوم، ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس، وانتفت النعرة التي تحمل عليها العصبية، فلا منفعة فيه حينئذٍ. والله سبحانه وتعالى أعلم

وفي الفصلين التاليين يبيّن المؤلف «ان الصريح من النسب انما يوجد للمتوحّشين في القفر من العرب ومن في معناهم» وذلك لبعدهم في القفر وعدم تقرّبهم من غيرهم من الامم، ذاك التقرّب الذي يؤدي الى المصاهرة، او الولاء، او الحلف، وكلها من اسباب «اختلاط الانساب»

الفصل الحادي عشر (١

في ان الرئاسة لا تزال في نصابها (٢ المخصوص من اهل العصبية

إعلم أنَّ كلَّ حيّ او بطن من القبائل، وان كانوا عصابةً واحدة

---

١) هذا الفصل ساقط من نسخ باريس وطبعتها . ولكنه في طبعة بولاق، وقد نقله الشيخ نصر الهوريني عن نسخة تونس، ولاحظ انه يطابق الفصل الثاني عشر فاثبته. وانّا نرى فيه طريقة ابن خلدون في متابعة احكامه، وجمله، ومفرداته ايضاً، مما لا يدع شكاً في صحة نسبته

٢) النِصاب: الاصل، ويريد به ابن خلدون الاسرة التي حفظت الملك بين اعضائها

لنسبهم العامّ ، ففيهم ايضاً عصبيّات أخرى لانساب خاصّة هي اشدّ التحاماً من النسب العامّ لهم : مثل عشير واحد ، او أهل بيت واحد ، او اخوة بني أب واحد ؛ لا مثل بني العمّ الاقربين او الابعدين . فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ، ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العامّ . والنعرة تقع من اهل نسبهم المخصوص ، ومن اهل النسب العامّ ؛ الّا انها في النسب الخاصّ أشدُّ لقرب اللحمة . والرئاسة فيهم انما تكون في نصابٍ واحد منهم ، ولا تكون في الكل . ولما كانت الرئاسة انما تكون بالغلب ، وجب ان تكون عصبية ذلك النصاب اقوى من سائر العصائب ؛ ليقع الغلب بها وتتمّ الرئاسة لاهلها . وإذا وجب ذلك ، تعيّن ان الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغَلب عليهم . اذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الاخرى ، النازلة عن عصابتهم في الغلب ، لما تمّت لهم الرئاسة . فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرعٍ منهم الى فرع . ولا تنتقل الّا الى الاقوى من فروعه ، لما قُلناه من سرّ الغَلب . لان الاجتماع والعصبيّة بمثابة المزاج للمتكوّن والمزاج في المتكوّن لا يصلح اذا تكافأت العناصر ، فلا بدّ من غلبة احدها ، والا لم يتمّ التكوين

فهذا هو سرّ اشتراط الغلب في العصبيّة ، ومنه تعيّن استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص بها ، كما قرّرناه

ويستنتج ابن خلدون من المبدأ نفسه ، اي من ضرورة العصبية للغلب ، ومن ثمّ للرئاسة ، مادة الفصل ثاني عشر ، فيبرهن ان « الرئاسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم » لانهم لا يقرّون بالغلبة لغيرهم ، ويتدرج الى ذكر الموالي والمصطنعين وتمييزهم عن النسب الأصلي فيقول .

الفصل الثالث عشر

في ان البيت والشرف ، بالاصالة والحقيقة ، لأهل العصبية ؛ ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك ان الشرف والحسب انما هو بالخِلال ؛ ومعنى « البيت » أن يعدّ الرجل في آبائه أشرافاً مذكورين يكون له ، بولادتهم إياه ، والانتساب اليهم ، تجلة في اهل جلدته ، لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه ، وشرفهم بخلالهم . والناسُ ، في نشأتهم وتناسلهم ، معادن . قال (صلعم) : « الناس معادن ؛ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ، اذا فقهوا » . فمعنى الحسب راجعٌ الى الانساب ؛ وقد بيّنا ان ثمرة الانساب وفائدتها انما هي العصبية للنعرة والتناصُر . فحيث تكون العصبيّة مرهوبة ومخشية ، والمنبت فيها زكيّاً محميّاً ، تكون فائدة النسب اوضح ، وثمرتها اقوى . وتعديد الاشراف من الآباء زائدٌ في فائدتها فيكون الحسب والشرف أصليين في اهل العصبيّة لوجود ثمرة النسب ، وتفاوت البيوت ، في هذا الشرف ، بتفاوت العصبيّة لانه سرّها

ولا يكون للمنفردين من اهل الامصار بيت إلّا بالمجاز وان توهموه ، فزُخرُفٌ من الدعاوى . واذا اعتبرت الحسب في اهل الامصار ، وجدتَ معناه ان الرجل منهم يعدُّ سلفاً في خلال الخير ، ومخالطة اهله ، مع الركون الى العافية(١) ما استطاع . وهذا مُغاير لسرّ العصبيّة التي هي ثمرة النسب

(١) العافية : مصدر عافى الله فلاناً : دفع عنه السوء والبلاء . والمراد بها هنا : السكينة والسلام

وتعديد الآباء . لكنه يطلق عليه «حسب» و«بيت» بالمجاز ، لعلاقة ما فيه من تعديد الآباء المتعاقبين على طريقة واحدة من الخير ومسالكه . وليس «حسباً» بالحقيقة وعلى الاطلاق

وقد يكون للبيت شرف اوّل بالعصبية والخِلال . ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة ، كما تقدَّم ، ويختلطون بالغمار (١) ؛ ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يَعـدّون به انفسهم من اشراف البيوتات ، اهل العصائب ، وليسوا منها في شيء لذهاب العصبيّة جملةً . وكثير من اهل الامصار الناشئين في بيوت العرب او العجم لاوّلِ عهدهم ، مُوَسْوَسُون بذلك . واكثر ما رسخ الوَسواس في ذلك لبني إسرائيل . فإنه كان لهم بيت من اعظم بيوت العالم : بالمنبت اولاً ، لما تعدَّد في سَلَفهم من الانبياء والرُسل من لدن ابراهيم ، عليه السلام ، الى موسى ، صاحب ملّتهم وشريعتهم . ثم بالعصبيّة ثانياً ، وما اتاهم الله به من المُلك الذي وعدهم به . ثم انسلخوا عن ذلك اجمع ، وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة ؛ وكتب عليهم الجلاء في الارض ؛ وانفردوا بالاستعباد للكُفْر آلافاً من السنين . وما زال هذا الوَسْواس مصاحباً لهم ، فتجدهم ، يقولون : «هذا هاروني !» — «هذا من نسل يوشع !» — «هذا من عقب كالب !» — «هذا من سبط يهوذا !» مع ذهاب العصبية ، ورسوخ الذلّ فيهم ، منذ أَحقاب متطاولة . وكثير من اهل الامصار وغيرهم ، المنقطعين في أنسابهم عن العصبية ، يذهب الى هذا الهذيان

---

(١) الغَمار : والغُمار : جماعة الناس

وقد غلط ابو الوليد ابن رشد(١ في هذا، لمّا ذكر الحسب في «كتاب الخطابة» من تلخيص كتاب المعلّم الاول (٢ فقال: «والحسب هو ان يكون من قوم قديم نُزلهم بالمدينة» ولم يتعرّض لما ذكرناه. وليت شعري ما الذي ينفعه قِدَمُ نُزلِهم بالمدينة، إن لم يكن لهم عصابة يُرهب بها جانبه، وتحمل غيره على القبول منه. فكأنه اطلق «الحسب» على تعديد الآباء فقط. مع ان الخطابة (٣ انما هي استمالة من تؤثر استمالته، وهم اهل الحلّ والعقد. واما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت اليه، ولا يقدر على

---

١) ابن رشد: (١١٢٦ — ١١٩٨) من اشهر فلاسفة الإسلام، ان لم نقل اشهرهم. اندلسي الأصل. وُلد في قرطبة وتوفي في مراكش. اشتغل في كل علوم عصره فترك التآليف العديدة في الفلسفة، والمنطق، والطبّ، والعلوم الطبيعية، والادب. اشهر ما وصل الينا من كتبه: «فصل المقال» يجتهد فيه ان يوفّق بين العلم والدين — «تهافت التهافت» ردّ على «تهافت الفلاسفة» للغزالي — «الكليّات» في الطب — عدا الشروح والتعاليق العديدة على كتب ارسطو الذي كان يعتبره اعظم الفلاسفة. وقد درس ارنست رينان (Renan) فلسفة ابن رشد درساً وافياً في كتاب سمّاه: « Averroès et l'Averroïsme » طبعه في باريس ١٨٥٢؛ وفي عصرنا هذا قام المستشرق غوتيه (Gauthier) فدرس آراء ابن رشد في الصلة بين الدين والفلسفة وطبع كتابه سنة ١٩٠٩ — اما كتاب الخطابة الذي يتكلّم عنه ابن خلدون فهو قسم من تلخيص ابن رشد لكتب ارسطو اكبر فلاسفة اليونان، والذي يسمّى «المعلّم الاول»

٢) المعلّم الاول: هكذا في طبعة بولاق، اما في طبعة باريس فنرى «العلم الاول» والصواب «المعلّم الاول» كما ذكرنا؛ لانه لقب ارسطو عند العرب. ولا حاجة الى شرح العلم الاول بمجمل كتب ارسطو، كما فعل دي سلان في ترجمته (t. I - p. 282)

٣) الخطابة: اي كتاب ارسطو المأخوذ عن هذا المقطع. وان ردّ ابن خلدون، في هذا الباب، ينال ليس فقط ابن رشد، بل ارسطو ايضاً

استمالة احد، ولا يُستمال هو، واهلُ الامصار من الحضر، بهذه المثابـة.
الا ان ابن رشد ربي في جبل وبلدٍ، ولم يمـارسوا العصبيّة، ولا أنِسوا
احوالها. فبقي في امر «البيت» و «الحسب» على الامر المشهور من تعديد
الآباء على الاطلاق. ولم يُراجع فيه حقيقة العصبيّة وسرّها في الخليقة.
والله بكل شيء عليم!

الفصل الرابع عشر

في ان البيت والشرف للموالي (١) واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم

وذلك انّا قدَّمنا أَن الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العصبيّة.
فاذا اصطنع اهـل العصبيّة قوماً من غير نسبهم، او استرقّوا العبدان
والموالي، والتحموا بهم، كما قلناه، ضرب معهم اولئك الموالي والمصطنعون
بسهمٍ في تلك العصبيّة، ولبسوا جلدتَها، كأنها عصبيّتهم، وحصل لهم
من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها، كما قال (صلعم). «مولى القوم
منهم»: وسواء كان مولى رقّ، او مولى اصطناع، وحلف.» وليس نسب
ولادته بنافعٍ له، في تلك العصبية، إذ هي مباينة لذلك النسب. وعصبيّة

---

١) الموالي: ج. المولى: والمولى لفظة تدلّ على معنيين متناقضين في باب الحقّ
المدني: ١ً العبد المعتَق، او الغريب المُجار — ٢ً السيد المُعتق او المُجير — وهي
هنا بالمعنى الاول، وفي آخر العنوان بالمعنى الثاني

ذلك النسب مفقودة لذهاب سرّهـا عند التحامه (١ بهذا النسب الآخر، وفقدانه (١ أهل عصبيتها. فيصير من هؤلاء، ويندرج فيهم. فاذا تعدّدت له الآباء في هـذه العصبية، كان له بينهم شرف وبيت على نسبته في ولائهم، واصطناعهم، لا يتجاوزه الى شرفهم؛ بل يكون أدوَن منهم على كل حال. وهذا شأن الموالي في الدول، والخَدَمة كلّهم. فانهم انما يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها، وتعدُّد الآباء في ولايتها: ألا ترى الى موالي الاتراك، في دولة بني العباس، والى بني بَرْمَك (٢ من قبلهم، وبني نُوبَخت (٣، كيف ادركوا البيت والشرف، وبنوا المجد والاصالة، بالرسوخ في ولاء الدولة! فكان جعفر بن يحيي بن خالد من اعظم الناس بيتاً وشرفاً بالانتساب الى ولاء الرشيد وقومه، لا بالانتساب في الفرس. وكذا موالي كل دولة وخَدَمَتها، انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ في ولائها والاصالة في اصطناعهـا، ويضمحلّ نسبهم لاقدم من غير نسبها، ويبقى ملغىً لا عبرة به في اصالتـه ومجده. وانما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه، اذ فيه سر العصبيّة التي بها البيت والشرف. فكان شرفه مشتقاً من شرف مواليه، وبناؤه من بنائهم. فلم ينفعه نسب ولادته وانما بنى مجدَه نسبُ الولاء في الدولة، ولحمة الاصطناع فيها، والتربية. وقد يكون نسبه الاول في لحمة عصبية ودولة، فـاذا ذهبت، وصار

---

١) التحامه وفقدانه: الضمير عائد للمولى المنتسب الى القوم

٢) راجع ما قاله ابن خلدون عن البرامكة – [الروائع: ج١٣، ص: ١٥–١٨] وما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد – [الروائع: ج ٩، ص: ٨٥]

٣) بنو نُوبَخت: المراد هم ولدا سهل ابن نُوبخت، الفضل والحسن، وكانا من وزراء المأمون

ولاؤه واصطناعه في أخرى ، لم تنفعه الاولى لذهاب مصبيتها ، وانتفع بالثانية لوجودها. وهذا حال بني بَرْمك : إذ المنقول انهم كانوا اهل بيت في الفُرس ، من سَدَنَة (١ بيوت النار عندهم . ولما صاروا الى ولاء بني العباس ، لم يكن بالاول اعتبار . وانما كان شرفهم من حيث ولايتهم في الدولة ، واصطناعهم . وما سوى هذا فوَهم تُوَسْوِس به النفوسُ الجامحة ، ولا حقيقة له . والوجود شاهدٌ بما قلناه . « وإنَّ اكرَمَكم عند الله اتقاكم ! » (٢

الفصل الخامس عشر

في ان نهاية الحسب في العقب الواحد اربعة آباء

إعلم ان العالم العنصري بما فيه كائنٌ فاسد ، لا من ذواته ولا من احواله (٣ ؛ فالمكوَّنات من المعدن ، والنبات ، وجميع الحيوانات : الانسان وغيره ، كائنة فاسدة بالمعاينة . وكذلك ما يعرض لها من الاحوال . وخصوصاً الانسانية : فالعلوم تنشأ ثم تدرس ؛ وكذلك الصنائع وامثالها . والحسبُ من العوارض التي تعرض للآدميين ؛ فهو كائن فاسد لا محالة . وليس يوجد لاحدٍ من اهل الخليقة شرفٌ متصل في آبائه من لدنِ آدم اليه ؛ الا ما كان من ذلك للنبي (صلعم) كرامةً به ، وحياطةً على الشرفية (٤

١) سَدَنة : ج. سادِن : خادم الكعبة . او بيت النار عند الفُرس ؛ الحاجب ؛ البوّاب   ٢) القرآن : (سورة ٤٩ [الحجرات] : ١٣)

٣) لا من كذا . . . ولا من كذا . . . : تعبير خاص بابن خلدون معناه : ليس فقط من كذا . . . بل ايضاً من كذا . . .

٤) الشرفيّة : كذا في طبعة باريس ؛ وفي طبعة بولاق : السرّ فيه

واول كلّ شرف خارجيّة ، كما قيل . وهي الخروج عن الرئاسة والشرف لى الضعة والابتذال، وعدم الحسب . ومعناه : ان كل شرف وحسب فعدمُه سابقٌ عليه ، شأنَ كل مُحدَث . ثم ان نهايته في اربعة آباء : وذلك أن باني المجد عالمٌ بما عاناه في بنائه ، ومحافظٌ على الخِلال التي هي اسباب كونه . وابنُه ، من بعده ، مباشرٌ لابيه ؛ فقد سمع منه ذلك ، واخذه عنه . إلّا انه مقصر في ذلك تقصيرَ السامع بالشيء عن المُعاني له . ثم اذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة ؛ فقصَّر عن الثاني تقصيرَ المقلّد عن المُجتهد . ثم اذا جاء الرابع قصَّر عن طريقتهم جملةً ، واضاع الخِلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها ؛ وتوهّم انَّ ذلك البُنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلّف . وانما هو امر وجب لهم منذ اوّل النشأة بمجرّد انتسابهم ، وليس بعصابة ولا بخلال ؛ لما يرى من التجلّة بين الناس ، ولا يعلم كيف كان حدوثها ، ولا سببها . ويتوهّم انه النسب فقط . فيَرْبأ بنفسه عن أهل عصبيّته ، ويرى الفضلَ له عليهم ، وثوقاً بما ربيَ فيه من استتباعهم ، وجهلًا بما اوجب ذلك الاستتباع من الخِلال التي منها التواضع لهم ، والاخذ بمجامع قلوبهم . فيحتقرهم لذلك ، فينتقضون عليه ، ويحتقرونه، ويديلون(١ منه سواه من اهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب ، للإذعان لعصبيتهم ، كما قلناه ؛ بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله . فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الاول ، وينهدم بناء بيته . هذا في الملوك ؛ وهكذا في بيوت القبائل والامراء واهل العصبية أجمع ؛ ثم في بيوت اهل الامصار : اذا انحطّت

---

١) يديلون : من اداله الله زيدًا من عمرو : نزع الدولة من عمرو وحوّلها الى زيد

بيوت، نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب. « إن يشأ يُذهبكم ويأتِ بخلقٍ جديد. وما ذلك على الله بعزيز ! » (١

واشتراط الاربعة في الاحساب انما هو في الغالب. والا فقد يدثّر البيت من دون الاربعة ، ويتلاشى وينهدم . وقد يتّصل امرها الى الخامس والسادس؛ الّا انه في انحطاط، وذهاب. واعتبارُ الاربعة من قبَل الاجيال الاربعة: بانٍ، ومباشر له، ومقلّد، وهادم! وهو اقل ما يُمكن .

وقد اعتبرت الاربعة في نهاية الحسب، في باب المدح والثناء :

قال(صلعم) : « انما الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ! » إشارة الى انه بلغ الغاية من المجد

وفي التوراة ما معناه : « إن الله ربك طائقٌ، غيور، مطالبٌ بذنوب الآباء للبنين على الثوالث والروابع. » (٢ وهذا يدلّ على ان الاربعة الاعقاب غاية في الانساب والحسب

---

١) راجع القرآن : (سورة ٤ [النساء] : ١٣٢) وفيها بعض الاختلاف

٢) وفي التوراة : « انا الربّ ، إلهُك ، إلهٌ غيور ، انتقد ذنوب الآباء في البنين الى الجيل الثالث والرابع من مُبغضيّ . » (سفر الخروج : الفصل العشرون : ٥) بانتقاص كلمة « طائق » التي ذكرها ابن خلدون . وهذه الكلمة ناقصة ايضاً في نسخة التوراة العبرانية ، والنسخة السامرية ، وفي كل النسخ العربية . ولا توجد الا في النسخة « العامّية » (Vulgate) . وهذا الامر حمل المستشرق دي سلان على الاعتقاد ان ابن خلدون عرف ترجمة عربية لهذه النسخة الاخيرة — راجع ترجمة دي سلان للمقدمة (t. I ; p. 288–289)

وفي كتاب الاغاني (١ في اخبار عُوَيف القوافي (٢ ، ان كسرى قال للنعمان : «هل في العرب قبيلة تتشرّف على قبيلة ؟» قال : « نعم ! » قال : « بأيّ شيء ؟ » قال : « من كان لـه ثلاثة آباء متوالية رؤساء ؛ ثم اتصل ذلك بكمال الرابع ، فالبيت من قبيلته .» وطلب ذلك فلم يجده الّا في آل حذيفة بن بدر الفزاري،وهم بيت قيس ؛ وآل حاجب بن زرارة ، وآل قيس بن عاصم المنقري ، من بني تميم ؛ وآل ذي الجدّين ، بيت شيبان ؛ وآل الاشعث بن قيس ، من كندة . فجمع هؤلاء الرهط ، ومن تبعهم من عشائرهم ، واقعد الحكّام العدول(٣ فقام حذيفة بن بَدر ؛ ثم الأشعث بن قيس ، لقرابته من النعمان ؛ ثم بسطام بن قيس بن شيبـان ؛ ثم حاجب بن زرارة ؛ ثم قيس بن عاصم ؛ وخطبوا ، ونثروا . فقال كسرى : « كلّهم سيّد

---

١) الاغاني : كتاب مشهور ، وضعه ابو الفرج الاصبهاني (٨٩٧ — ٩٦٧) ليشرح الاغاني السائرة عند العرب ، في عصره ؛ فذكر تراجم اصحابها ، والظروف التي حملتهم على انشادها ، مع وصف محيطهم واخبارهم ، وذكر طائفة من اشعارهم ؛ الى غير ذلك من المعلومات الادبية ، والجغرافية ، والتاريخية ، والفنية ، مما جعل كتابه اغزر مورد لمآخذ الآداب العربية في العصر الجاهلي ، والثلاثمائة سنة الاولى من الاسلام — طُبع منه في بولاق ، سنـة ١٨٦٨ ، عشرون جزءا ، فاتمّه المستشرق برونوف (Brunnow) بالجزء الحادي والعشرين الذي طبعهُ في ليدن . ثم اشتغل بعض المستشرقين بعناية غويدي (I. Guidi) فنشروا فهارسه الواسعة في مجلّد كبير . وتهتمّ دار الكتب المصرية الآن باعداد طبعة متقنـة لهذا الكتاب ، ظهر منها المجلّد الاول ، فاذا هو ممتاز بما استوفى من الشروط اللازمة ، التي خلت منها الطبعات السابقة .

٢) عويف القوافي : عويف بن معاوية الفزاري ، من مقلّي شعراء الدولـة الاموية ، كان يسكن الكوفة ، وبيته احد البيوتات الشريفة عند العرب

٣) العُدول : ج. عادل : المنصف في حكمه

يصلح لموضعه. » وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب، بعد بني هاشم (١. ومنهم بيت الديّان (٢ من بني الحرث بن كعب، بيت اليمن. وهذا كلّه يدلّ على ان الاربعة الآباء نهاية الحسب. والله اعلم !

الفصل السادس عشر

في ان الامم الوحشية اقدر على التغلّب من سواها

إعلم انه لما كانت البداوة سبباً في الشجاعة، كما قلنا في المقدّمة الثالثة، (٣ لا جرم كان هذا الجيل الوحشي اشدّ شجاعة من الجيل الآخر. فهم اقدر على التغلّب، وانتزاع ما في ايدي سواهم من الامم. بل الجيل الواحد تختلف احواله في ذلك باختلاف الاعصار. فكلّما نزلوا الارياف، وتفنّقوا (٤ النعيم، وألفوا عوائد الخصب في المعاش والنعيم، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحّشهم، وبداوتهم. واعتبرْ ذلك في الحيوانات العُجم بدواجن الظباء، والبقر الوحشية والحُمُر، اذا زال توحّشها بمخالطة الآدميين، واخصب عيشها، كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدّة، حتى في مشيتها وحسن اديمها. وكذلك الآدمي

١) بنو هاشم: عائلة النبي، فرع من بني قُرَيش

٢) الديّان: كذا في نسخة باريس؛ وفي طبعة بولاق « الذيبان » وهو تصحيف لان المشهور عن بني ذيبان انهم لم يكونوا في اليمن.

٣) هذا المأخذ غلط. وان المؤلّف اراد، دون شك، ان يُحيل القارئ الى الفصل الخامس من هذا البحث؛ لا الى المقدّمة الثالثة من البحث الماضي، راجع ص: ٧

٤) تفنّق: انغمس في النعيم.

المتوحّش، اذا أنس وألف. وسببه أنّ تكوّنَ السجايا والطبائع انما هو عن المألوف والعوائد. واذا كان الغلب للأُمم انما يكون بالاقدام والبسالة؛ فمن كان من هذه الاجيال أعرقَ في البداوة، واكثر توحشاً، كان اقرب الى التغلب على سواه، اذا تقاربا في العَدد، وتكافأا في القوة والعصبية

وانظرْ في ذلك شأن مُضَر مع من قبلهم من حِمْيَرَ وكهلان السابقين الى المُلك والنعيم؛ ومع ربيعة المتوطنين ارياف العِراق، ونعيمه؛ لما بقي مُضَر في بداوتهم، وتقدّمهم الآخرون الى خصب العيش، وغضارة النعيم؛ كيف ارهفت البداوة حدّهم في التغلُّب، فغلبوهم على ما في ايديهم وانتزعوه منهم. وهذا حال بني طيْ، وبني عامر بن صعصعة، وبني سُلَيم ابن منصور، من بعدهم، لما تأخروا في باديتهم على سائر قبائل مُضر واليمن ولم يتلبّسوا بشيء من دُنياهم؛ كيف امسكت حالُ البداوة عليهم قوّة عصبيتهم، ولم تخلقها مذاهب الترف، حتى صاروا اغلب على الامر منهم. وكذا كلّ حيّ من العرب يلي نعيماً، وعيشاً خصباً، دون الحيّ الآخر. فانّ الحيّ المتبدّي يكون اغلب له، واقدر عليه، اذا تكافأا في القوّة والعدد: سنّة الله في خلقه!

الفصل السابع عشر

في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي المُلك

وذلك لأنّا قدّمنا أن العصبية بها تكون الحماية، والمدافعة، والمطالبة وكل أمر يُجتمع عليه. وقدّمنا ان الآدميين، بالطبيعة الانسانية، يحتاجون، في كل اجتماع، الى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض. فلا بدّ ان يكون

متغلباً عليهم بتلك العصبية ، والّا لم تتمّ قدرته على ذلك . وهـذا التغلّب هو المُلك . وهو امرٌ زائد على الرئاسة . لان الرئاسة انمـا هي سؤدد ، وصاحبها متبوع ؛ وليس له عليهم قهرٌ في احكامه . وامّا المُلـك فهو التغلّب والحُكم بالقهر . وصاحب العصبية ، اذا بلغ الى رتبةٍ ، طلب ما فوقها ؛ فاذا بلغ رتبة السؤدد والاتّباع ، ووجد السبيل الى التغلّب والقهر ، لا يتركه لانه مطلوبٌ للنفس ؛ ولا يتمّ اقتدارُها عليـه الا بالعصبية التي يكون بها متبوعاً . فالتغلّب الملكي غايةٌ للعصبية ، كما رأيت . ثم ان القبيل الواحد ، وان كانت فيه بيوتات مفترقة ، وعصبيّات متعدّدة ، فلا بدَّ من عصبيّة ، تكون اقوى من جميعها ، تغلبها ، وتستتبعها ، وتلتحم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كُبرى . والّا وقع الافتراق المُفضي الى الاختلاف والتنازُع . «ولولا دفعُ الله النـاسَ بعضهم ببعضٍ لفسدتِ الأرض» (١

ثم اذا حصل التغلّب بتلك العصبية على قومها ، طلبت ، بطبعهـا ، التغلب على اهل عصبية أُخرى بعيدة منها . فان كافأتها ، او مانعتها ، كانوا قتالًا (٢ وانظارًا ، ولكل واحدة منها التغلّب على حوزتها وقومها : شأن القبائل والامم المتفرّقة في العالم . وان غلبتها واستتبعتها ، التحمت بها ايضاً ، وزادت قوّةً ، في التغلّب ، الى قوّتها ؛ وطلبت غاية من التغلب والتحكم اعلى من الغاية الاولى وابعد . وهكذا دائماً حتى تُكافئَ بقوّتها قوّة الدولة . فان ادركت الدولة في هَرمها ، ولم يكن لها ممانع من اولياء

---

١) القرآن : (سورة ٢ [البقرة] : ٢٥٢)

٢) الأقتال : جـ . قِتْل : العدوّ ؛ المقاتل ؛ القِرن ؛ النظير .

الدولة، أهل العصبيات ، استولت عليهـا ، وانتزعت الامر من يدها ، وصار الملك اجمع لها. وان انتهت الى قوّتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة ، انما قارن حاجتها الى الاستظهار بأهل العصبيات، انتظمتها الدولة في اوليائها تستظهر بها على ما يعنّ من مقاصدها. وذلك مُلكٌ آخر دون المُلك المستبدّ. وهو كما وقـع للتُرك في دولة بني العبّاس (١) ولصَنهاجة وزَناتة مع كِتامة (٢) ولبني حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية (٣ والعبّاسية (٤

فقد ظهر ان الملك هو غاية العصبيّة. وأنها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك : إما بالاستبداد او بالمظـاهرة، على حسب ما يسعه الوقت المقـارن لذلك . وان عاقها عن بلوغ الغاية عوائق، كما نبيّنه، وقفت في مقامها، الى ان يقضي الله بأمره

١) كان اول دخول الاتراك في خدمة الخلفاء العبّاسيين ، في بغداد ، على عهد المنصور (٧٥٤-٧٧٥) . ثم اخذ عددهم يتكاثر ، فتقرّبوا من مناصب الدولة المهمّة حتى ادخلهم المعتصم بالله (٨٣٣-٨٤٢) الدواوين ، واستكثر منهم فبلغ غلمانه ثمانية عشر الف تركي. فلم يلبثوا ان استولوا على المملكة بعد قتل المتوكّل (٨٤٧ - ٨٦١)

٢) كانت كِتامة من اعظم نصراء الفاطميين . اما تغلّب قبائـل صنهاجة وزناتة عليهم ، فكان اصله ان الفاطميين عهدوا بامارة افريقية لبعض القبائـل الصنهاجية ، فلم تلبث ان استقلّت عنهم. وحصل الأمر نفسه ، اذ عهـد الفاطميون بامارة فاس الى قبيلة مكنسة الزناتيـة ، فالتحق اميرها بأمويي الاندلس ، وترك مواليه الاوّلين.

٣) العلويّة : اي فاطميّو مصر .

٤) العبّاسية : اي خلفاء بغداد ، ويذكرهم ابن خلدون ، بين ملوك الشيعة ، لانهم نالوا الخلافة ، وتغلّبوا على بني أميّـة بواسطة دعاة الشيعة ورجالها كما هو مشهور. واستقلال بني حمدان الفعلي عن الخلفاء مشهور ايضاً .

الفصل الثامن عشر

في ان من عوائق الملك حصول الترف، وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك ان القبيل، اذا غلبت بعصبيّتها بعض الغلب، استولت على النعمة بمقداره؛ وشاركت اهل النعيم والخصب في نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم في ذلك بسهم وحصّة بمقدار غلبها، واستظهار الدولة بها. فان كانت الدولة من القوّة بحيث لا يطمع احد في انتزاع امرها ولا مشاركتها فيه، اذعن ذلك القبيل لولايتها، والقنوع بما يسوّغون من نعمتها، ويُشرَكون فيه من جبايتها؛ ولم تسمو آمالهم الى شيء من منازع الملك، ولا اسبابه. انما همّهم النعيم، والكسب، وخصب العيش، والسكون، في ظلّ الدولة، الى الدعة والراحة، والاخذ بمذاهب الملك في المباني، والملابس؛ والاستكثار من ذلك والتأنّق فيه، بمقدار ما حصل من الرياش، والترف، وما يدعو اليه من توابع ذلك. فتذهب خشونة البداوة، وتضعف العصبيّة والبسالة، ويتنعمون فيما اتاهم الله من البَسطة. وينشأ بنوهم واعقابهم في مثل ذلك من الترفّع عن خدمة أنفسهم، وولاية حاجاتهم. ويستنكفون عن سائر الامور الضرورية في العصبيّة؛ حتى يصير ذلك خُلقاً لهم وسجيّة. فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الاجيال بعدَهم بتعاقبها؛ الى ان تنقرض العصبيّة، فيأذنون بالانقراض. وعلى قدر تَرَفِهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء، فضلًا عن المُلك. فانّ عوارض التَرَف والغرق في النعيم كاسرٌ من

سورة العصبية التي بها التغلُّب. واذا انقرضت العصبية، قصَّر القبيل عن المدافعة والحماية، فضلًا عن المطالبة؛ والتهمتهم الامم سواهم

فقد تبيَّن أن الترف من عوائق الملك «والله يؤتي مُلكه من يشاء»! (١

الفصل التاسع عشر

في ان من عوائق الملك حصول المذلّة للقبيل والانقياد الى سواهم

وسبب ذلك ان المذلّة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدّتها. فان انقيادهم ومذلّتهم دليل على فقدانها. فما رئموا للمذلّة حتى عجزوا عن المدافعة؛ ومن عجز عن المدافعة فأولى ان يكون عاجزًا عن المقاومة والمطالبة

سبب تيه بني إسرائيل

واعتبر ذلك في بني اسرائيل لما دعاهم موسى، عليه السلام، الى مُلك الشام، واخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها، كيف عجزوا عن ذلك وقالوا: «ان فيها قوماً جبارين! وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها.» (٢ اي يخرجهم الله تعالى منها، بضرب من قدرته، غير عصبيتنا، وتكون من معجزاتك يا موسى. ولما عزم عليهم، لجّوا، وارتكبوا

---

١) القرآن: (سورة ٢ [البقرة]: ٢٦٨)
٢) القرآن: (سورة ٥ [المائدة]: ٢٥ وما يتبعها)

العصيان، وقالوا له: «اذهب انت وربّك فقاتلا...» (١ وما ذلك الا لما أنسوا من انفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة، كما تقتضيه الآية، وما يؤثر في تفسيرها. وذلك بما حصل فيهم من خُلق الانقياد، وما رئموا من الذلّ للقبط أحقاباً؛ حتى ذهبت العصبية منهم جملةً، مع انهم لم يؤمنوا حقّ الايمان بما اخبرهم به موسى من ان الشام لهم وان العمالقة، الذين كانوا بأريحا، فريستهم بحكم من الله قدّره لهم. فاقصروا عن ذلك وعجزوا، تعويلاً على ما في انفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خُلق المذلّة. وطعنوا فيما اخبرهم به نبيّهم من ذلك، وما امرهم به. فقابلهم الله بالتيه: وهو انهم تاهوا في قفر من الارض، ما بين الشام ومصر، اربعين سنة لم يأووا فيها العُمران، ولا نزلوا مصراً، ولا خالطوا بشراً، كما قصّه القرآن (٢؛ لغلظة العمالقة بالشام، والقبط بمصر، عليهم لعجزهم عن مقاومتهم، كما زعموه. ويظهر من مَساق الآية ومفهومها ان حكمة التيه مقصودة: وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذلّ، والقهر، والقوّة، وتخلّقوا به، وافسدوا من عصبيّتهم. حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الاحكام والقهر، ولا يُسام بالمذلّة. فنشأت بذلك عصبيّة أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلُّب. ويظهر لك من ذلك ان الاربعين سنة اقلّ ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر. سبحان الحكيم العليم!

وفي هذا اوضح دليل على شأن العصبيّة؛ وأنها هي التي تكون بها

---

١) القرآن: (سورة ٥ [المائدة]: ٢٧)

٢) راجع القرآن: (سورة ٥ [المائدة]: ٢٩)

المدافعة ، والمقاومة ، والحماية ، والمطالبة ؛ وان من فقدها عجز عن جميع ذلك كلّه

مُلحق في تأثير المغارم والضرائب

ويلحق بهذا الفصل ، فيما يوجب المذلّة للقبيل ، شأنُ المغـارم (١ والضرائب :

فان القبيل الغارمين ما اعطوا اليدَ لذلك حتى رضوا بالمذلّة فيه ؛ لان في المغارم والضرائب ضيماً ومذلّة لا تحتملهـا النفوس الابية ، الا اذا استهونته عن القتل والتلف . وان عصبيتهم حينئذٍ ضعيفة عن المدافعـة والحماية . ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم ، فكيف له بالمقاومة او المطالبة ، وقد حصل له الانقياد للذلّ . والمذلّة عائقةٌ ، كما قدّمناه . ومنه ، في «الصحيح» (٢ ، قوله (صلعم) ، في شأن الحَرْث ، لمـا رأى سكة المحراث في بعض دور الانصار (٣ : «ما دخلت هذه دارَ قومٍ الا دخلهم

---

١) المَغارم : ج . مَغرَم وهو كالغُرم والغَرامة : ما يلزم اداؤه من المال ، على كره ؛ ضريبة الغالب على المغلوب .

٢) الصحيح : اول الكتب المصنّفة في الحديث ، واشهرها ؛ لان مؤلّفه ، ابا عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري (٨١٠ — ٨٧٠) بـذل المجهود في سبيل جمع الاحاديث ، فجال في معظم البلاد الاسلامية ، حتى جمع ٦٠٠،٠٠٠ حديث انتقدها ولم يقبل منها الّا ٧٢٧٥ سردها في « صحيحه » فقبلها الجميع من بعده . ونال كتابه شهرة واسعة ، فشرح ، وعُلّقت عليه الحواشي ، مرّات عديدة ، ولا يزال اهمّ المؤلفات في هذا النوع .

٣) الانصار : اصحاب محمد من اهل المدينـة ، الذين استقبلوه ، ونصروه ، حين هجرته .

الذلّ.» فهو دليل صريح على ان المَغْرَم موجب للذلّة (١ . هــذا الى ما يصحب ذلّ المغارم من خُلق المكر والخديعة ، بسبب ملكة القهر . ففي «الصحيح» ان رسول الله (صلعم) كان يستعيذ من المَغْرَم ؛ فسُئل عن ذلك فقال: «ان الرجل ، اذا غرم ، حدّث فكذب ، ووعد فأخلف.»

فاذا رأيت القبيل بالمغارم في رِبْقَةٍ من الذلّ ، فلا تطمعنّ لها بمُلك ، آخرَ الدهر . ومن هنا يتبيّن لك غلط من يزعم ان زَناتة ، بالمغرب ، كانوا شاوية يؤدّون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك ، وهو غلط فاحش ، كما رأيت . اذ لو وقع ذلك ، لما استتبّ لهم ملك ، ولا تمّت لهم دولة. وانظر فيما قاله شَهْرَبِراز (٢ ، ملكُ الباب ، لعبد الرحمن بن ربيعة (٣ ، لما اطلّ عليه ، وسأل شهرَبراز أمانه ، على ان يكون له (٤ . فقال : « انا اليوم منكم ، يدي في ايديكم ، وصَغوي (٥ معكم . فرحباً بكم ، وبارك الله لنا ولكم . وجزيَتنا اليكم النصرُ لكم ، والقيام بما تُحبّون ؛ ولا تُذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم.» فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كافٍ

---

١) هذا رأي ابن خلدون الخاصّ في شرح الحديث المذكور . ولا يوافقه عليه باقي الشرّاح ، بل يقول بعضهم ان مراد محمد كان ان يدفع اصحابه الى الجهاد ، ويصرفهم عن الجبن وقلة الاهتمام ، الظاهرة في من يركن الى الزراعة وطرق الكسب الحضرية .

٢) شَهرَبراز: وفي معجم ياقوت : « شهريار » وهو ملك مدينة الباب (دربند) في صدر الاسلام . اما سقوط هذه المدينة في ايدي المسلمين فكان سنة ٢٢ هـ (٦٤٣م) على قول ابن الاثير ، وسنة ١٩ هـ (٦٤٠) على قول ياقوت .

٣) عبدالرحمن بن ربيعة : كان قائد طليعة الحملة الاسلامية على الباب .

٤) على ان يكون لهُ : اي على ان يكون شهربراز مساعدًا لعبد الرحمن .

٥) الصَغو : الميل — صغا فلان الى فلان : مال اليه ، وكان من حزبه .

الفصل العشرون

في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة، وبالعكس

لما كان الملك طبيعياً للانسان، لما فيه من طبيعة الاجتماع، كما قلناه؛ وكان الانسان اقرب الى خلال الخير من خلال الشرّ، بأصل فطرته، وقوّته الناطقة العاقلة، لانّ الشرّ انما جاءه من قِبَل القوى الحيوانية التي فيه. واما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله اقرب. والملك والسياسة انما كانا له من حيث هو انسان. لانهما للانسان خاصّة، لا للحيوان. فاذاً خلالُ الخير فيه هي التي تُناسب السياسة والمُلك؛ اذ الخير هو المناسب للسياسة. وقد ذكرنا ان المجدَ له اصلٌ يُبنى عليه، وتتحقق به حقيقته، وهو العصبيّة والعشير؛ وفرعٌ يتمّم وجوده ويكمّله، وهو الخِلال

واذا كان المُلك غايةً للعصبية فهو غاية لفروعها، ومتمّماتها، وهي الخِلال. لان وجوده دون متمّماته كوجود شخصٍ مقطوع الاعضاء، او ظهوره عرياناً بين الناس. واذا كان وجود العصبية فقط، من غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً في اهل البيوت والاحساب، فما ظنّك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد، ونهاية لكل حسب

وايضاً فالسياسة والملك هي كفالة للخلق، وخلافة لله في العباد، لتنفيذ احكامه فيهم؛ واحكام الله في خلقه وعباده انما هي بالخير، ومراعاة المصالح، كما تشهد به الشرائع. واحكام البشر انما هي من الجهل

والشيطان ، بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معاً ومقدّرهما اذ لا فاعل سواه (١ . فمن حصلت لهُ العصبية الكفيلة بالقدرة ، وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ احكام الله في خلقه ، فقد تهيأ للخلافة في العباد ، وكفالة الخلق ، ووُجدت فيه الصلاحية لذلك . وهذا البرهان اوثق من الاول ، واوضح مبنى .

فقد تبيّن ان خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وُجدت لهُ العصبية . فاذا نظرنا الى اهل العصبية ، ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والأمم ، فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله : من الكرم ، والعفو عن الزلّات ، والاحتمال من غير القادر ، والقِرى للضيوف ، وحمل الكَلّ (٢ ، وكسب المعدم ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الاموال في صون الاعراض ، وتعظيم الشريعة ، واجلال العلماء الحاملين لها ، والوقوف عند ما يحدّدونه لهم من فعلٍ او ترك ، وحسن الظنّ بهم ؛ واعتقاد أهل الدين ، والتبرّك بهم ، ورغبة الدعاء منهم ، والحياء من الاكابر والمشايخ ، وتوقيرهم ، واجلالهم ؛ والانقياد للحق مع الداعي اليه ؛ وانصاف المستضعفين من انفسهم ، والتبذّل في احوالهم ؛

---

١) يرى المتكلّمون ان اعمال الانسان «اختيارية» اي انها متعلّقة بارادته . ولكنه لا يفعلها إلا بقدرة الله ، لا بقدرته التي لا تأثير لها في تنفيذ اعماله . وهم يشرحون ذلك بقولهم ان الله «يُجري العادة» بان يجعل في الانسان قدرة وارادة اختيارية ؛ فاذا لم يكن في ذاك الانسان مانع ، قام بعملهِ الذي قدّره الله . وبهذه الطريقة تكون اعمال الناس من خلق الله ، ولكنها تبقى «مكسوبة» لهم ، اي انهم مسؤولون عنها .

٢) الكلّ : الضعيف ؛ العيّل .

والتواضع للمسكين ، واستماع شكوى المستغيثين ، والتديّن بالشرائع والعبادات ، والقيام عليها وعلى اسبابها ، والتجافي عن الغدر ، والمكر ، والخديعة ، ونقض العهد ، وامثال ذلك ؛ علمنا ان هذه خُلُق السياسة قد حصلت لديهم ، واستحقوا بها ان يكونوا ساسة لمن تحت ايديهم او على العموم ، وانه خيرٌ ساقه الله اليهم ، مناسبٌ لعصبيتهم وغَلَبهم . وليس ذلك سدىً فيهم ولا وُجد عبثاً منهم . والمُلك انسب الخيرات والمراتب لعصبيتهم . فعلمنا بذلك ان الله تأذّن لهم بالمُلك ، وساقه اليهم

وبالعكس من ذلك اذا تأذَّن الله بانقراض المُلك من أُمّة حملَهم على ارتكاب المذمومات ، وانتحال الرذائل ، وسلوك طرقها . فتُفقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال في انتقاص الى ان يخرج الملك من ايديهم ويتبدل به سواهم ؛ ليكون نعياً عليهم في سلب ما كان الله قد اتاهم من الملك ، وجعل في ايديهم من الخير : « واذا اردنا أن نُهلك قريةً ، أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها ، فحقَّ عليها القول ؛ فدمّرناها تدميراً . » (١) واستقرئْ ذلك ، وتتبّعه في الأمم السابقة ، تجد كثيراً مما قلناه ، ورسمناه . « والله يخلق ما يشاء ويختار ! » (٢

واعلم ان من خلال الكمال التي تنافس فيها القبائل اولو العصبيّة ، وتكون شهادة لهم بالملك ، اكرام العلماء ، والصالحين ، والاشراف ، واهل الحسب ، واصناف التجّار ، والغرباء ، وانزال الناس منازلهم . وذلك ان اكرام القبائل ، واهل العصبيات والعشائر ، لمن يناهضهم في

---

١) القرآن : (سورة ١٧ [الاسرى] : ١٧)
٢) القرآن : (سورة ٢٨ [القصص] : ٦٨)

الشرف ، ويجاذبهم حبل العشير والعصبية ، ويشاركهم في اتساع الجاه ، امرٌ طبيعي يحمل عليه ، في الاكثر ، الرغبة في الجـاه ، او المخافة من قوم المكرَّم ، او التماس مثلها منه

واما امثـال هؤلاء ممن ليس له عصبية تُتَّقى ، ولا جاه يُرتجى ، فيندفع الشكّ في شأن كرامتهم ، ويتمحّض القصد فيهم أنه للمجد ، وانتحال الكمال في الخلال ، والاقبال على السياسة بالكلّية . لان اكرام أقتاله وامثاله ضروري في السياسة الخاصّة بـين قبيله ونظرائه ؛ واكرام الطارئين من اهل الفضائل والخصوصيّات كمالٌ في السياسة العـامّة . فالصالحون للدين ، والعلماء للحاجة اليهم في اقامـة مراسم الشريعة ، والتجّار للترغيب ، حتى تعمّ المنفعة بهم ، والغرباء من مكارم الاخلاق[1] ومن الترغيب ببعض الوجوه ؛ وانزال الناس منازلهم من الانصاف ، وهو من العدل

فيُعلم ، بوجود ذلك من اهل عصبيّة ، انتماؤهم للسياسة العامّة ، وهي المُلك ؛ وان الله قد تأذّن بوجودها فيهم ، لوجود علاماتها . ولهذا كان أوّلُ ما يذهب من القبيل ، اهل المُلك ، اذا تأذّن الله تعالى بسلب مُلكهم وسلطانهم ، إكرامَ هذا الصنف من الخَلق . فاذا رأيته قد ذهب من أمّة من الأمم ، فاعلم ان الفضائل قد اخذت في الذهاب عنهم ، وارتقبْ زوال الملك منهم . «واذا اراد الله بقومٍ سوءًا ، فلا مردّ له !» [2]

---

١) يعني : اكرامهم من مكارم الاخلاق .

٢) قرآن : سورة ١٣ [الرعد] : ١٢

الفصل الحادي والعشرون

في انه، اذا كانت الأمّة وحشية، كان ملكها اوسع

وذلك لانهم اقدر على التغلّب والاستبداد، كما قلناه، واستعباد الطوائف، لقُدرتهم على محاربة الامم سواهم؛ ولانهم يتنزّلون من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العُجم. وهؤلاء مثل العرب، وزناتة، ومن في معناهم من الاكراد، والتركمان، وأهل اللِثام من صنهاجة. وايضاً فهؤلاء المتوحّشون ليس لهم وطن يرتافون (١ منه، ولا بلد يجنحون اليه، فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء. فلهذا لا يقتصرون على ملكة قُطرهم وما جاوَرهم من البلاد؛ ولا يقفون عند حدود أفقهم؛ بل يطفِرون (٢ الى الاقاليم البعيدة، ويتغلّبون على الأمم النائية. وانظر ما يُحكى، في ذلك عن عُمر (رضه) لما بُويع، وقام يحرّض الناس على العراق، فقال: «ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النُجعة، ولا يقوى عليه اهله الا بذلك. اين الطُرّاء (٣ المهاجرون عن موعد الله! سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب، ان يورثكموها»، فقال: «ليظهره على الدين كلّه، ولو كره المشركون.» (٤ واعتبر ذلك ايضاً بحال العرب السالفة من قبل مثل

---

١) يرتافون: في كتب اللغة: رف، واريف، وترّيف الرحل: اتى الريف ومن معاني الريف: السعة في المأكل والمشرب.

٢) يطفرون: من طفر: وثب في ارتفاع.

٣) الطراء: الآتون من مكان بعيد — وفي نسخة بولاق: «القرّاء».

٤) القرآن: (سورة ٩ [التوبة]: ٣٣).

التبابعة وحِمْيَر ، كيف كانوا يخطون ، فيما نُقل ، من اليمن الى المغرب مرة ، والى الهند (١ والعراق اخرى . ولم يكن ذلك لغير العرب من الأمم . وكذا حال الملثمين من المغرب ، لمّا نزعوا الى المُلك ، طفِروا من الاقليم الاول ، ومجالاتهم منه في جوار السودان ، الى الاقليم الرابع والخامس في ممالك الاندلس ، من غير واسطة . وهذا شأن هذه الأمم الوحشية . فلذلك تكون دولتهم اوسع نطاقاً ، وابعد من مراكزها نهاية . «والله مقدّر الليل والنهار !» (٢

الفصل الثاني والعشرون

في ان الملك ، اذا ذهب عن بعض الشعوب من امّة ، فلا بدّ من عوده الى شعب آخر منها ، ما دامت لهم العصبية

والسبب في ذلك انّ الملك انما حصل لهم ، بعد سورة الغَلَب ، والإذعان لهم من سائر الأمم سواهم . فيتعيّن منهم المباشرون للأمر ، الحاملون سرير الملك . ولا يكون ذلك لجميعهم ، لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المزاحمة ، والغَيرة التي تجدع انوفَ كثير من المتطاولين للرتبة . فاذا تعيّن اولئك القائمون بالدولة ، انغمسوا في النعيم ، وغرقوا في بحر الترف والخصب ، واستعبدوا اخوانهم ، من ذلك الجيل ، وانفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها . وبقي الذين بعدوا عن الامر ، وكُبحوا

---

١) وفي موضع آخر من المقدّمة ، ينفي ابن خلدون ما يتظاهر بقبوله هنا من غزوات التبابعة الى المغرب ، واطراف آسيا — راجع الروائع [مجلد ١٣ ص : ٩]

٢) القرآن : (سورة ٧٣ [المزمّل] : ٢٠)

عن المشاركة ، في ظلّ من عزّ الدولة التي شاركوها بنسبهم ، وبمَنجاةٍ من الهَرَم ، لبعدهم عن الترف واسبابه . فاذا استولت على الاوّلين الأيّام ، واباد غضراءهم (١ الهرم ، فطَحَنَتْهم الدولة ، وأكل الدهر عليهم وشرب ، بما أرهف النعيمُ من حدّهم واستقت غريزة الترف من مائهم ، وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدُّن الإنساني ، والتغلُّب السياسي ،

كدود القزّ ينسج ، ثم يفنى بمركز نسجه في الانعكاسِ ،

كانت حينئذٍ عصبية الآخرين موفورة ، وسورةُ غلبهم من الكاسر محفوظة ، وشارتُهم في الغلب معلومة . فتسمو آمالهم الى المُلك الذي كانوا ممنوعين عنه بالقوّة الغالبة ، من جنس عصبيتهم ؛ وترتفع المنازعة لما عُرف من غلبهم . فيستولون على الامر ، ويصير إليهم . وكذا يتّفق فيهم مع من بقي ايضاً منتَبذًا عنه (٢ من عشائر أمتهم . فلا يزال الملك ملجأً في الأمّة الى ان تنكسر سورة العصبيّة منها ، او يفنى سائر عشائرها : سنة الله في الحياة الدنيا ؛ « والآخرة عند ربك للمتّقين ؛ » (٣

واعتبرْ هذا بما وقع في العرب : لمّا انقرض ملك عاد ، قام به من بعدهم إخوانُهم من ثمود . ومن بعدهم ، إخوانُهم العمالقة . ومن بعدِهم ، اخوانُهم من حِميَر . ومن بعدهم ، اخوانُهم التبابعة من حمير ايضاً . ومن بعدهم ، الأذواء (٤ كذلك . ثم جاءت الدولة لمُضَر . وكذا الفُرس : لما

---

١) الغَضْراء : حالة الخصب ، والخير ، وطيب العيش .

٢) عنه : الضمير للملك .

٣) القرآن : (سورة ٤٣ [الزخرف] : ٣٤)

٤) الأذواء : ج . ذو ؛ وذو : لقب كان يتلقب به ملوك حِمَير ؛ فيقال لهم مثلًا

انقرض امرُ الكينيّة، ملك، من بعدهم، الساسانيـة؛ حتى تأذّن الله بانقراضهم اجمع، بالإسلام. وكذا اليونانيون انقرض امرهم وانتقل الى اخوانهم من الروم. وكذا البَرْبر، بالمغرب، لما انقرض امرُ مَغْراوة، وكِتامة (١، الملوك الاوَل منهم، رجع الى صنهاجة؛ ثم الملثّمين؛ ثم المصامدة (٢؛ ثم من بقي من شعوب زناتة (٣. وهكذا سنة الله في عباده وخلقه

واصل هذا كلّه انما يكون بالعصبية. وهي متفاوتة في الاجيال. والملك يُخلِقُه التَّرف، ويُذهبه، كما سنذكره بعد. فاذا انقرضت دولة، فانما يتناول الامرَ منهم من له عصبية مشاركة لعصبيتهم، التي عُرف لها التسليم والانقياد؛ وأونس منها الغَلب لجميع العصبيات. وذلك انما يوجد في النسب القريب منهم. لان تفاوت العصبية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه او بعد. حتى اذا وقع في العالم تبديل كبير من تحويل ملّة، او ذهاب عُمران، او ما شاء الله من قدرته، فحينئذٍ يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبديل؛ كما وقع لُمضر، حتى غلبوا على الأمم والدول، واخذوا الامر من ايدي اهل العالم، بعد ان كانوا مكبوحين عنه أحقاباً

ذو يَزَن، وذو الأذعار، وذو القَرنين. ويدعون ايضاً «بالذوين». ومنهُ المثل في الفخر: «كانه احد الذوين!» اي كانه احد هؤلاء الملوك.

١) كان مقرّ مَغراوة في تِلمِسان، وكتامة في القيروان.

٢) المصامدة: هم المعروفون ايضاً «بالموحّدين»

٣) باقي شعوب زناتة: هم قبائل عبد الواد، والمرينيين.

الفصل الثالث والعشرون

في ان المغلوب مولَعٌ ابدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره ، وزيّه ، ونحلته ، وسائر احواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس ابدًا تعتقد الكمال في من غَلَبها ، وانقادت اليه : إمَّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، او لما تغالط به من أنَّ انقيادها ليس لغلبٍ طبيعي ، انما هو لكمال الغالب . فاذا غالطت بذلك واتصل لها ، صار اعتقادًا . فانتحلت جميع مذاهب الغالب ، وتشبّهت به : وذلك هو الاقتداء ؛ او لما تراه ، والله اعلم ، من ان غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوّة بأس . وانما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب ، تُغالط ايضاً بذلك عن الغَلب . وهذا راجعٌ للأوّل . ولذلك ترى المغلوب يتشبّه ابدًا بالغالب في ملبسه ، ومركبه ، وسلاحه ، في اتخاذها ، واشكالها بل وفي سائر احواله . وانظر ذلك في الابناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبّهين بهم دائمًا ، وما ذلك الّا لاعتقادهم الكمال فيهم . وانظر الى كل قُطر من الاقطار كيف يغلب على اهله زيّ الحامية ، وجند السلطان ، في الاكثر ؛ لانهم الغالبون لهم . حتى انه اذا كانت امّة تجاور أُخرى ، ولها الغَلب عليها ، فيسري اليهم من هذا التشبّه والاقتداء حظّ كبير . كما هو في الاندلس ، (١ لهذا العهد مع أمم الجلالقة (٢ . فانك تجدهم يتشبّهون

---

١) الاندلس : المراد بهِ اهل الاندلس من المسلمين .

٢) الجلالقة : المراد جم سكان مقاطعات ليون وقشتالة من النصارى

بهم في ملابسهم ، وشاراتهم ، والكثير من عوائدهم ، واحوالهم ، حتى في رسم التماثيل في الجدران ، والمصانع والبيوت . حتى لقد يستشعر ، من ذلك ، الناظرُ بعين الحكمة ، انه علامة الاستيلاء ؛ والامر لله ! وتأمّل في هذا سرّ قولهم : « العامّة على دين المَلِك ! » فانه من بابه ، اذ الملك غالب لمن تحت يده ، والرعيّة مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه ، اعتقادَ الابناء بآبائهم ، والمتعلّمين بمعلّميهم ؛ والله العليم الحكيم !

الفصل الرابع والعشرون

في ان الأمة ، اذا غُلبت وصارت في ملك غيرها ، أسرع اليها الفناء

والسبب في ذلك ، والله أعلم ، ما يحصل في النفوس من التكاسل ، إذا مُلك امرُها عليها ، وصارت بالاستعباد آلةً لسواها ، وعالةً عليهم . فيقصر الأمل ، ويضعف . والتناسل والاعتمار انما هو من حدّة الأمل ، وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية . فاذا ذهب الامل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو اليه من الاحوال ، وكانت العصبية ذاهبةً بالغَلَب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانُهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم ، وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضَد الغَلَب من شوكتهم . فاصبحوا مغلّبين لكل متغلّب ، وطعمةً لكل آكل ؛ وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من المُلك ام لم يحصلوا

ثم يتوسّع في البرهان عن عدم تناسل الامم المغلوبة ، ويغلط ، إذ يذكر ، مثالاً على قوله ، انقراض الفرس بعد تملّك العرب عليهم . ومن المعروف انهم لم ينقرضوا

الفصل الخامس والعشرون

في ان العرب لا يتغلّبون الّا على البسائط

وذلك انهم ، بطبيعة التوحّش التي فيهم ، أهلُ انتهاب وعَيث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالَبة ، ولا ركوب خطر ، ويفرّون الى منتجعهم بالقفر ؛ ولا يذهبون الى المزاحفة والمحاربة ، الّا اذا دافعوا بذلك عن انفسهم . فكلّ معقِل او مستصعب عليهم ، فهم تاركوه الى ما سهل عنه ، ولا يعرضون له . والقبائل الممتنعة عليهم باوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم ، لانهم لا يتسنّمون اليهم الهضاب ، ولا يركبون الصعاب ، ولا يحاولون الخطر . واما البسائط ، فتى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة ، فهي نهبٌ لهم ، وطُعمة لآكلهم ، يردّدون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم ، الى ان يصبح اهلها مغلَّبين لهم . ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي ، وانحراف السياسة الى ان ينقرض عمرانهم . والله قادرٌ على خلقه ، وهو الواحد القهّار لا ربَّ غيره

الفصل السادس والعشرون

في ان العرب ، اذا تغلّبوا على اوطان ، اسرع اليها الخراب

والسبب في ذلك أنهم أُمّة وحشية باستحكام عوائد التوحّش واسبابه فيهم ، فصار لهم خلقاً وجبلّة ؛ وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن رِبقة الحكم ، وعدم الانقياد للسياسة . وهذه الطبيعة منافية للعُمران ، ومناقضة له . فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرِحلة والتغلّب .

وذلك مناقضٌ للسكون الذي به العُمران، ومنافٍ له. فالحجر مثلاً انما حاجتهم اليه لنَصْبه أثافيّ (١) للقدور، فينقلونه من المباني، ويخرّبونها عليه، ويعدّونه لذلك. والخشب ايضاً انما حاجتهم اليه ليعمّروا به خيامهم، ويتّخذوا الاوتاد منه لبيوتهم، فيخربون السقف عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العُمران

هذا في حالهم على العموم. وايضاً فطبيعتهم انتهاب ما في ايدي الناس وانّ رزقهم في ظلال رماحهم؛ وليس عندهم في اخذ اموال الناس حدٌّ ينتهون اليه. بل كلما امتدّت اعينهم الى مال، او متاع، او ماعون، انتهبوه. فاذا تمّ اقتدارهم على ذلك بالتغلّب والمُلك، بطلت السياسة في حفظ أموال الناس، وخرب العمران

وايضاً فلأنهم يكلّفون، على اهل الاعمال من الصنائع والحرف، أعمالهم، لا يرون لها قيمة ولا قِسطاً من الاجر والثمن والاعمال، كما سنذكره، هي اصل المكاسب، وحقيقتها. واذا فسدت الاعمال، وصارت مجّاناً، ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الايدي عن العمل، وابذعرّ (٢) الساكن، وفسد العمران

وايضاً فانهم ليست لهم عناية بالاحكام، وزجر الناس عن المفاسد، ودفاع بعضهم عن بعض. انما همّهم ما يأخذونه من اموال الناس نهباً او غرامة. فاذا توصّلوا الى ذلك وحصلوا عليه، أعرضوا عمّا بعده من تسديد أحوالهم، والنظر في مصالحهم، وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد. وربما

(١) الاثافي: [illegible] ... أُثفية: الحجر [illegible] الى [illegible] [illegible] القدر ويوقد تحتها.

(٢) ابذعرّ: [illegible]

فرضوا العقوبات في الاموال حِرْصاً على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها ، كما هو شأنهم . وذلك ليس بُغْنٍ عن دفع المفاسد ، وزَجر المتعرّض لها ؛ بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغُرْم في جانب حصول الغَرَض . فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم ؛ والفوضى مهلكة للبشر، مفسدة للعمران ، بما ذكرناه من أن وجود المُلك خاصّة طبيعية للانسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم إلّا بها ، وتقدّم ذلك في اول الفصل

وايضاً فهم متنافسون في الرئاسة . وقلّ ان يُسلِّم احدٌ منهم الأمر لغيره، ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته ، الّا في الاقلّ وعلى كُرهٍ ، من اجل الحياء . فيتعدّد الحُكّام منهم ،والامراء ؛ وتختلف الايدي على الرعيّة في الجباية والاحكام ، فيفسد العُمران وينتقض . قال الاعرابي الوافد على عبد الملك ، لمّا سأله عن الحجّاج ، واراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران، فقال : « تركتُه يظلمُ وحدَه ! »

وانظرْ الى ما ملكوه وتغلّبوا عليه من الاوطان ، من لدُن الخليقة ، كيف تقوّض عُمرانه ، واقفر ساكنه ، وبُدّلت الأرض فيه غير الأرض : فاليَمَن، قرارُهم، خراب ، إلّا قليلًا من الامصار؛ وعراق العرب كذلك، قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ؛ وافريقية (١ والمغرب (٢ ، لما جاز اليها بنو هِلال وبنو سُلَيم ، منذ عهد

---

١) افريقية : يستعمل مؤلفو المغرب هذه الكلمة طوراً بمعنى «تونس» وتارة بمعنى القُطر المؤلّف من تونس، وطرابلس الغرب، ومقاطعة قُسَنْطينة ، وهو المقصود هنا .

٢) المغرب : المقصود به هنا مراكش .

المائة الخامسة ، وتمرّسوا (١ بها لثلاثمائة وخمسين من السنين ، قد لحقا (٢ بها (٣ ، وعادت بسائطه خراباً كلها، بعد ان كان، ما بين السودان والبحر الرومي ، كلّه عمراناً . تشهد بذلك آثار العُمران فيه من المعالم ، وتماثيل البناء ، وشواهد القُرى والمَدَر . والله يرث الارض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ! (٤

الفصل السابع والعشرون

في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية ، من نبوّة ، او وِلاية ، او اثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم ، لخُلق التوحّش الذي فيهم ، أصعب الأُمم انقيادًا بعضهم لبعض ، للغلظة ، والأَنفَة ، وبُعد الهمّة ، والمنافسة في الرئاسة ؛ فقلّما تجتمع اهواؤهم . فاذا كان الدين ، بالنبوّة او الولاية ، كان الوازع لهم من انفسهم ؛ وذهب خُلق الكِبرَ والمنافسة منهم . فسهل انقيادهم واجتماعهم . وكذلك بما يشملهم من الدين المُذهب للغلظة والأَنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس . فاذا كان فيهم النبيّ او الوليّ الذي يَبعثهم على القيام بأمر الله تعالى ويُذهب عنهم مذمومات الأَخلاق ويأخذهم

---

١) تمرّسوا : اي احتكّوا بها وتعرّضوا لها بالشرّ .

٢) لحقا : الضمير لافريقية والمغرب .

٣) بها : الضمير لما تقدّم ذكره من البلاد : اليمن ، والعراق ، والشام — اي لحقا بها بالخراب واضمحلال العُمران .

٤) راجع القرآن : (سورة ٢١ [الانبياء] : ٨٩)

بجمودها ، ويؤلّف كلمتهم لإظهار الحقّ ، تمّ اجتماعُهم ، وحصل لهم التغلّب والملك . وهم، مع ذلك ، أسرع النـاس قبولًا للحقّ والهُدى ، لسلامة طِباعهم من عِوَج المَلَكات ، وبراءتها من ذميم الاخلاق ، إلا ما كان من خُلق التوحّش القريب المعاناة ؛ المتهيّء لقبول الخير ببقـائه على الفطرة الاولى ، وبُعـده عمّا ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات . « فان كل مولود يولد على الفطرة » كما ورد في الحديث ، وقد تقدّم

الفصل الثامن والعشرون

في ان العرب ابعد الأُمم عن سياسة المُلك

والسبب في ذلك أنهم اكثر بداوةً من سائر الأُمم ، وأبعد مجالًا في القفر ، واغنى عن حاجات التلول وحبوبها ، لاعتيادهم الشَظَف وخشونـة العيش . فاستغنوا عن غيرهم ، فصَعُب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك، وللتوحّش . ورئيسهم محتاجٌ اليهم غالباً للعصبيّة التي بها المدافعة ، فكان مضطرًا الى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم ، لئـلّا يختلّ عليه شأن عصبيّته ، فيكون فيها هلاكُه وهلاكُهم

وسياسة الملك والسلطان تقتضي ان يكون السائس وازعاً بالقهر . والّا لم تستقمْ سياسته . وايضاً،فان من طبيعتهم، كما قدّمناه ، أخذ ما في ايدي الناس خاصّـة ؛ والتجافي عمّا سوى ذلك من الاحكام بينهم ، ودفاع بعضهم عن بعض . فاذا ملكوا أُمّة من الامم ، جعلوا غايـة مُلكهم الانتفاع باخذ ما في ايديهم، وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم .

وربما جعلوا العقوبات على المفاسد، في الاموال، حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد. فلا يكون ذلك وازعاً. وربما يكون باعثاً، بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد، واستهانة ما يُعطي من ماله في جانب غرضه؛ فتنمو المفاسد بذلك، ويقع تخريب العُمران. فتبقى تلك الأمّة كأنها فوضى، مستطيلة ايدي بعضها على بعض، فلا يستقيم لها عمران، وتخرب سريعاً شأن الفوضى، كما قدّمناه

فبعدت طباعُ العرب، لذلك كلّه، عن سياسة المُلك. وانما يصيرون اليها بعدَ انقلاب طباعهم، وتبدّلها بصبغةٍ دينية تمحو ذلك منهم، وتجعل الوازع لهم من انفسهم، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض، كما ذكرناه. واعتبرْ ذلك بدولتهم في الملّة، لمّا شيّد لهم الدين أمرَ السياسة بالشريعة واحكامها المُراعية لمصالح العمران، ظاهرًا وباطنً؛ وتتابع فيها الخلفاء؛ عظُم حينئذٍ ملكهم، وقوي سلطانهم. كان رستم (١)، اذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة، يقول: «أكل عُمَرُ (٢) كبدي! يعلّم الكلابَ الآداب!»

ثم انهم، بعد ذلك، انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين، فنسوا السياسة. ورجعوا الى قفرهم، وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة، ببُعدهم عن الانقياد، وإعطاء النَّصفة (٣) فتوحّشوا كما كانوا. ولم يبقَ لهم من اسم الملك الّا انه للخلفاء، وهم من جيلهم. ولما ذهب

---

١) رستم: قائد جيوش الفُرس في معركة القادسية سنة ٦٣٦ — راجع الروائع [جزء ١٣ ؛ ص: ٦]

٢) عمر: اي عمر بن الخطّاب: ثاني الخلفاء الراشدين (٦٣٤—٦٤٤)

٣) إعطاء النصفة: اي جهلوا اعطاء النصفة، وهو العدل.

أمر الخلافة ، وامّحى اسمها ، انقطع الامر جملةً من ايديهم ، وغلب عليهم العَجَم دونهم . واقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون المُلك ولا سياسته . بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم مُلك في القديم ؛ وما كان لاحدٍ من الامم في الخليقة ما كان لأجيالهم من المُلك . ودُوَل عاد ، وثمود ، والعمالقة ، وحمْيَر ، والتبابعة ، شاهدة بذلك . ثمّ دولة مُضر في الإسلام : بني أُمية ، وبني العبَّاس . لكن بَعُدَ عهدُهم بالسياسة ، لما نسوا الدين ، فرجعوا الى اصلهم من البداوة . وقد يحصل لهم ، في بعض الاحيان ، غلب على الدول المستضعفة ، كما في المغرب ، لهذا العهد ؛ فلا يكون مآله وغايته الّا تخريب ما يستولون عليه من العمران ، كما قدَّمناه . والله يؤتي ملكه من يشاء !

الفصل التاسع والعشرون

في ان البوادي من القبائل ، والعصائب ، مغلوبون لاهل الامصار

قد تقدَّم لنا ان عُمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار ؛ لان الامور الضرورية في العمران ليس كلّها موجوداً لأهل البدو . وانما توجد لديهم ، في مواطنهم ، أمور الفَلح ، وموادُّها معدومة ، ومُعظمها الصنائع فلا توجد لديهم في الكلية : من نجّار ، وخيّاط ، وحدّاد ، وامثال ذلك ، مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفَلح وغيره . وكذا الدنانير والدراهم مفقودة لديهم . وانما بايديهم أعواضُها من مُغَلّ الزراعة ، وأعيان

الحيوان ، او خلافه : ألباناً ، وأوباراً ، وأشعاراً ، وإهاباً (١) ، مما يحتاج اليه أهل الامصار ؛ فيعوّضونهم عنه بالدنانير والدراهم

الّا ان حاجتهم الى الامصار في الضروري . وحاجةُ أهل الامصار اليهم في الحاجي والكمالي (٢) . فهم محتاجون الى الامصار بطبيعة وجودهم . فما داموا في البادية ، ولم يحصل لهم مُلك ولا استيلاء على الامصار ، فهم محتاجون الى اهلها ، ويتصرّفون في مصالحهم وطاعتهم ، متى دعوهم الى ذلك وطالبوهم به . وإن كان في المِصر ملك ، كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك . وان لم يكن في المِصر ملك ، فلا بدّ من رئاسة ، ونوع استبداد ، من بعض أهله على الباقين ؛ وإلّا انتقض عمرانه . وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعي في مصالحه ، إمّا طوعاً ببذلِ المال لهم ، ثمّ يبيح لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره ، فيستقيم عمرانهم ؛ وامّا كُرهاً ، ان تمّت قدرته على ذلك ، ولو بالتّضريب بينهم حتى يحصل له جانبٌ منهم يغالب به الباقين . فيضطر الباقون الى طاعته ، بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم . وربما لا يسعهم مفارقة تلك النواحي الى جهاتٍ أخرى ؛ لان كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ، ومنعوها من غيرها . فلا يجد هؤلاء ملجأً الّا طاعة المصر ، فهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار . والله قاهرٌ فوق عباده ، وهو الواحد الأَحد القهّار !

---

١) الإهاب : الجلد غير المدبوغ .

٢) والواقع على عكس ما يتصوّره ابن خلدون : فان حاجات اهل المدن الى اهل البوادي أمسّ من حاجات هؤلاء الى اولئك . اذ يمكن للبدوي ان يعيش بغنى عن المدن ، مكتفياً بما هو ضروري لحياته فقط ، كما قرّره مؤلفنا نفسه في غير موضع من مقدّمته .

فهرس

العمران البدوي

